
روايات مصرية للجيب
زهور
101
ورود وأحجار
Looloo
www.dvd4arab.com

هذه السلسلة ..

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..
وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..
يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحبّ الذى يروى هذه المشاعر .
فيعيد إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب.. وفى لحظات الكراهية.. وفى لحظات الجفاف.. فتشيع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

إهــــداء :

إلى (نورا) ..

وإلى كل (نورا) تنثر الحب فى مكانٍ ما ..

المؤلف

الفصل الأول

بدا كورنيش النيل خاليًا تمامًا من عشاقه ومن المارة .. فالساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل .. وصقيع (طوبة) الذى لايُحتمل ! أخلى الشوارع من الناس منذ ساعات الليل الأولى ..

لم يكن هناك سوى شابٍ وسيم نحيلٍ يقف بجوار سور الكورنيش ، على بعد أمتار قليلة من كوبرى الجامعة ، وقد اضطره الصقيع إلى رفع ياقة معطفه الأسود الأنيق حول رقبته ، ودس يديه فى جيوبه .. كان واضحًا أن الشاب يقف فى انتظار أحدٍ ما ..

فقد كان ينظر فى ساعته بشىء من الضيق تارة .. ثم يرسل بصره إلى الكازينو الذى تسطع أضواؤه على الجانب الآخر من الطريق تارة أخرى .. وعندما ضاق بالانتظار استدار نحو النهر الناعس ، واستغرق فى تأمل صفحته الساكنة ، وقد انعكست فوقها أضواء أعمدة الإنارة المنتصبة على ضفة النيل ..

ذلك كان (نادر) .. رسام شاب فى الثلاثين من عمره ، حباه الله بوسامة ساحرة وشخصية راقية عذبة ، وكان أعذب ما فيه ضحكته البريئة الصافية .. تلك الضحكة التى تنطلق

من قلبه الأبيض مرفرفة على جناحى البراءة ، فتنفتح لها القلوب فى سعادة وحفاوة ..

وكانت وقفة (نادر) على هذا النحو ، وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل جزءًا ثابتًا من برنامجه اليومى ، بل أحب جزء إليه فى يومه كله ، رغم مشقة المشوار الذى يقطعه لبلوغ مكانه هذا ، ورغم مشقة الانتظار نفسه ، والذى كان كثيرًا ما يطول حتى يغمغم الشاب راجيًا :

- هيا يا (نورا) ..

وظهرت (نورا) ..

خرجت من باب الكازينو ، وعيناها على الحبيب الواقف وحيدًا فى الخلاء والبرد .. ولم تملك أن تمنع نفسها من الابتسام بفرحة وإشفاق فى آنٍ واحد .. وأسرعت تعبر الطريق برشاقة ساحرة .. كانت فتاة صارخة الجمال .. لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها .. تشع الفتنة من كافة تفاصيلها .. من تقسيمات قوامها الممشوق الرشيق ، ومن وجهها الأبيض المشرب بحمرة خفيفة ساحرة ، ومن عينيها الخضراوين الجريئتين ، وشفتيها المتوهجتين المرسومتين ربانى مثل حبتى (كريز) طازجتين .. ومن تسريحة شعرها الكستنائى الناعم التى منحت وجهها استدارة القمر وبهائه ..

باختصار كانت (نورا) فاتنة .. وقد زادتها شقاوتها ورقتها فتنة فوق فتنتها ، وهو ما بدا جليًا من مداعبتها لـ (نادر) من خلفه :

ـ أتأخرت على فتاني الوسيم ؟

والتفت إليها الفتى ملهوفًا ، وانطلقت عيناه تعانق وتقبل كل موضع فى وجهها بنهم مستعر ، حتى هتفت الفتاة الفاتنة ضاحكة ، وهى تدارى وجهها بيدها :

ـ كفى .. كفى .. التهمونى .

أزاح يدها عن وجهها برقة وهو يسألها :

ـ من هم ؟

ـ عيونك حبيبتىَ .

أخذها بين يديه هامسًا :

ـ وحشتينى .

راحت تملأ عينيها من وسامة وجهه ، ثم أجابته هامسة :

ـ أنت الذى وحشتنى .. وحشتنى بعدد أنفاسى .

وكاد ينسيان نفسيهما ، لولا سارينة سيارة مارقة أطلقها قائدها مداعبًا ، فانفجرا ضاحكين .. وتلفتت الفتاة حولها ملقية نظرة على الخلاء المحيط بهما ، ثم وضعت ذراعها فى ذراع فتاها الوسيم هامسة :

ـ دعنا نتمشى فى هذه المملكة الخالية علينا ..

وراح الحبيبان يتمشيان متأبطين متلاصقين ، وقد بدوا مع النيل والليل والخلاء كملاكين ينعمان بجنتهما القاصرة عليهما وحدهما .. وإذا بدعوة الكروان الشهيرة العذبة تسرى فوقهما فى الفضاء ، فأصغت (نورا) إليها ، ثم همست لفتاها :

ـ أسمعت ما قاله الكروان الشقى ؟

ـ وهل يغيرّها : (الملك لك لك يا صاحب الملك) .

ـ بل إنه يحسدنى عليك ..

وهبت كتلة هواء باردة ، أطاحت بشعر الفتاة على وجهها ، وجعلتها تتوقف عن السير ، وترتجف متأوّهة من البرد :

ـ آه .. برد .. برد .

وأسرع (نادر) ينزع معطفه عنه ، ويلفها به حتى سكنت بين يديه ، فهمس لها :

ـ إنه (يتشاقى) عليكِ .

ـ من هو ؟

ـ الهواء .

- وكيف تسمح له ؟ ألست حبيبتك وحدك ؟

- وحبيبة كل عشاق الجمال .. الهواء ، والسماء ، والقمر والنجوم ، حتى الأرض تحت قدميكِ مفتونة بك يا (نورا) ..

- وأنا مفتونة بك أكثر منهم ياهدية زمانى ..

وتعانقت عيون الحبيبين وراح قلباهما يرفرفان فى صدريهما كعصفورين هيجتهما نشوة الحب ..

وبدت (نورا) فى هذه اللحظة وكأنها اغتسلت تمامًا من مرارة ماضيها .. لقد نشأت فى كنف زوجة أب أقل ما يمكن أن يُقال عنها إنها كانت نموذجًا مجسدًا للشر والغل .. وإنها لم تجد منفذًا لشرها وغلها سوى الفتاة اليتيمة ، فراحت تنكل بها بكل ما أوتيت من جبروت وطغيان .. وقد ضاعف من طغيانها وتجبرها سلبية الأب مع زوجته الرعناء من ناحية ، وانعدام أبوته ونخوته تجاه ابنته الوحيدة اليتيمة من ناحية أخرى .. وهكذا لم تجد المسكينة سبيلاً أمامها للفرار من هذا الجحيم الموصول سوى السبيل الوحيد المتاح فى مثل حالتها ، وهو الزواج من أول عريس يطرق بابها ، وهو ما سلكته الفتاة البائسة فعلاً ، دون تردد ، ودون أى تحسب لمشاعرها ومستقبلها ، فكان نصيبها فى (عبده الإسكندرانى) .. ذلك العربيد المزواج ، الذى يعيش لنفسه فقط ، ولايعرف للمسئولية معنى أو وزنًا ،

والذى لم يحاول قط أن يصلح من شأنه حتى بعد إنجابهما طفلهما الأول (أمير) ، والذى بلغ السادسة من عمره منذ أيام قليلة ، مما دفع المسكينة لأن تخرج باحثة عن فرصة عمل شريفة تعول بها طفلها .. وانتهى بها سعيها إلى العمل مضيفة بأحد الكازينوهات الشعبية بمدينة الإسكندرية حيث كانت تقيم .. معرّضة نفسها لتحرشات وسماجة زبائن الكازينو الذين كانوا من أرذل وأحط أصناف البشر من ناحية ، ولوضاعة صاحب الكازينو نفسه من ناحية أخرى .. وكم كان الأمر شاقًا وقاسيًا على نفسها .. ولكنها كانت على استعداد لتحمل ما هو أكثر قسوة ومشقة لأجل (أمير) .. ذلك الطفل الجميل الذى أخذ عنها جمالها وذكاءها وخفة ظلها فجاء بلسمًا شافيًا لشقائها المتجدد .. مرار الساعات التى كانت تقضيها فى الكازينو الوضيع ، ومرار عشرة الزوج عديم الإحساس والنخوة ، ومرار الخوف من الأيام ، كله كان يمحوه هذا الطفل الشهى فى لحظة واحدة .. لحظة أن يقفز فى حضنها ضاحكًا متهللاً لعودتها .. لحظتها كان يغتسل قلبها ويرتوى بالسعادة ، فلايبق لمرارها أثر ..

وهكذا مضت الأيام بالفتاة الكادحة بين شقاء ساعات ، وسعادة لحظات .. إلى أن عادت ذات ليلة من عملها لتفاجأ بامرأة غريبة مع (عبده) فى الشقة .. وعندما سألته عنها بدهشتها ، أجابها بوقاحة يُحسد عليها بأنها (زوجته الجديدة) ..

وأطاحت الصدمة بأعصاب الفتاة المجهدة ، فاندفعت تقذف بالمرأة خارج الشقة .. فإذا بـ (عبده) يقذف بها هى ، ويلقى عليها يمين الطلاق .. وفى اليوم التالى كان يقذف بورقة الطلاق فى وجهها ، ويقذف معها بابنه الطفل ، وكأنه يقذف بحذاء قديم .. وفى نفس الليلة كانت الفتاة البائسة تترك الإسكندرية كلها مستقلة قطارًا متجهًا إلى القاهرة ، لا شىء معها سوى طفلها فى حضنها ، وحقيبة ملابسها ، ومبلغ بسيط فى حقيبة يدها ، وأحزانًا هائلة فى القلب .. ولم يكن لها أحد فى القاهرة .. ولم تفكر فى هذا الأمر .. كان كل همها أن تفر بطفلها من مدينة (الإسكندر الأكبر) التى قست عليها بلا مبرر .. ولكنها حينما وصلت القاهرة .. وجدت نفسها وحيدة على رصيف محطة القطار بعد أن خلت من ركابها .. وأفاقت إلى أن الوقت فجرًا .. وأنها لا تعرف لها مكانًا تذهب إليه ! تهالكت فى أحد مقاعد المحطة محتضنة طفلها فى صدرها ، وانسابت دموعها من عينيها .. وإذا بصوت رجولى حنون يسألها فى أدب :

- هل يمكننى مساعدة حضرتك فى شىء ؟

ورفعت الفتاة وجهها الغارق فى الدموع نحو صاحب الصوت ، فإذا به شاب مهذب وسيم يبعث وجهه على الطمأنينة .. وفوجئ الشاب بدموعها ، فعاد يسألها منزعجًا :

- ماذا بك يا سيدتى ؟

وأجابته المسكينة فى تحفُّظ وهى تمسح دموعها :

- لا شىء .

- إذا كان هناك ما يمكننى عمله ، فأنا تحت أمرك .

- متشكرة .

ولم يعد أمام الشاب إلا الانصراف إلى حال سبيله ، ففعل بينما قلبه لا يطاوعه ، خاصةً لمنظر الطفل النائم فى حضنها .. ولكنه ما كاد يبتعد بضعة خطوات حتى سمعها تسأله :

- هل يمكنك أن تدلنى على لوكاندة قريبة ؟

- واستدار الشاب عائدًا إليها ، وقد انجلى له الأمر .. مدَّ يده حاملاً عنها طفلها ، وحقيبة ملابسها ، وقال لها بحنان الأخ :

- هيا معى .

وأطاعته الفتاة .. وفى أقل من ساعة كان قد أسكنها فى بنسيون نظيف فى وسط المدينة ، تربطه بصاحبته علاقة طيبة ..

وشكرته الفتاة بامتنان شديد ، ومضت مع مدام (إنجى) صاحبة البنسيون إلى حجرتها .. وكانت حجرة واسعة نظيفة مريحة شكرت صاحبة البنسيون عليها ، ثم آوت إلى فراشها بطفلها وما كادت تفعل حتى راحت معه فى نوم عميق ....

ونامت الفتاة حتى شبعت نومًا ، ولم تستيقظ إلا قبيل الغروب على صوت الشاب النبيل فى التليفون يخبرها بوجوده فى بهو

البنسيون .. وخرجت إليه بوجه نضر بشوش ، وأقبلت عليه تصافحه بحميمية وامتنان ، بينما مدام (إنجى) تقول لها باسمة :

ـ الأستاذ (نادر) سأل على حضرتك اليوم أكثر من أربع مرات .

والتفتت إليه الفتاة ممتنة :

ـ متشكرة يا أستاذ (نادر) أتعبت حضرتك معى .

أشار لها الفتى الوسيم بالجلوس ، فجلست إلى جواره ، ثم قالت فى رقة :

ـ اسمى (نورا) ..

تأمل الفتى وجهها .. وفوجئ به وجهًا جميلاً فاتنًا ، ولكن الحزن يحتله بلا رحمة ..

سألها فى حنان :

ـ أنمتِ جيدًا ؟

ـ الحمد لله .

ـ وابنك ؟

ـ مازال نائمًا .

ـ ما اسمه ؟

ـ (أمير) ..

ابتسم ابتسامته الرصينة العذبة :

ـ طبعًا ابن الملكة لابد أن يكون (أمير) .

ابتسمت المسكينة لأول مرة ، وفوجئ هو بروعة ابتسامتها رغم ما فيها من حزن قاس ، همس لها :

ـ الله ! ما أروعها !

سألته مندهشة :

ـ ما هى ؟

ـ ابتسامتك الجميلة الحزينة .

غمغمت فى مرارة :

ـ كيف تكون حزينة وجميلة ؟

ـ الجمال موجود فى كل شىء ، حتى فى الحزن ذاته .

عادت إليها ابتسامتها الجميلة :

ـ حضرتك فيلسوف ؟

ـ حضرتى رسام .

حدقت فيه منبهرة :

ـ بيكاسو الصغير !

ابتسم لخفة ظلها .. بينما راحت هى تتأمله مليًا .. ولأخذتها وسامته ، ونظراته الدافئة البريئة .. اطمأنت له ، ووجدت نفسها تقول له :

ـ أنا جائعة .

هب واقفًا وهو يأخذ بيدها :

ـ هيا بنا .

سألته فى حرج .

ـ هل يمكننى أخذ (أمير) معنا ؟

أجابها بسرعة معاتبًا :

ـ وهل هذا سؤال ؟ هو قبلك .

عانقته بعينيها ممتنه ، واستدارت قاصدة حجرتها ، وعادت بعد لحظات فاتنة تسحر العين بحسنها وأناقتها ، وفى يدها (أمير) ، قد بدا وكأنه أجمل وأشيك طفل فى العالم .. وخرج ثلاثتهم من البنسيون وكأنهم أسرة صغيرة جميلة من أرقى وأسعد الأسر ..

وبدأت فصول حلم يفوق الورد جمالاً .. لم تصدق (نورا) نفسها وهى ترى كل هذا الحب ينهمر عليها هى وابنها .. فوجئت بـ (نادر) ملاكًا ينهمر الحب من كلماته ، من نظراته ،

من لفتاته .. فوجئت به ينبوع حنان ، وبقدر ظمئها اندفعت تروى منه قلبها وجوارحها التى كادت تموت ظمأ وجفافًا .. وفوجئت به ينشر جناحيه عليها هى وابنها يمنحهما الظل والدفء والأمان .. ثم إذا به يقيم لها أعمدة الحياة الكريمة عمودًا بعد عمود .. بحث لها عن عمل يليق بها حتى عملت مضيفة فى الكازينو الشهير الراقى بجوار كوبرى الجامعة .. واستأجر لها شقة صغيرة جميلة بنظام القانون الجديد .. وفرشها لها بأثاث بسيط .. ولم يكلفها الأمر أكثر من المبلغ البسيط الذى كان معها ..

وبدأت الفتاة تنهض من تحت ركام ماضيها البائس .. وبدأت تتنفس هواءً جديدًا .. وفتحت قلبها تستقبل الحياة المقبلة عليها من بعد إدبار .. والتفتت إلى فتاها الملاك ، مبعوث العناية الإلهية تقول له بعينيها ، وبقلبها ، وبكل جوارحها : أنا لك يا ملاكى .. ليتك تكون لى .. وكان رد ملاكها عليها أن ضمها فى صدره ، هامسًا فى أذنها :

ـ من الآن فصاعدًا انظرى أمامك .. إلى الأيام الحلوة المقبلة عليك بكنوس السعادة والأمل .. الماضى اللعين الذى ذبحك ولّى .. ولّى ولن يعود ..

وأغمضت الفتاة عينيها ، مطبقة جفونها على الحلم المذهل الذى أتاها من بعد كابوس ظنته طويلاً بلا نهاية ..

★ ★ ★

الفصل الثانى

دُهشت (نورا) لهذا الطارق الذى يطرق بابها فجرًا !! أيكون بواب العمارة ؟ مستحيل !! أيكون (نادر) ؟ ولكن لماذا وقد كان معها منذ لحظات قليلة ؟ ثم إنه لا يأتيها هنا نهارًا مهما اقتضى الأمر ، فكيف يفعلها ليلاً وفى مثل هذه الساعة ؟ وازداد الطرق إلحاحًا ، وخفق قلب الفتاة خوفًا وتوجُسًا ، ودنت من الباب وهى ترتدى روبها فى ارتباك ، ووقفت خلفه تسأل :

ـ من الطارق ؟

وإذا بصوت رجل قوى يأتيها آمرًا :

ـ افتحى يا (نورا) .

فُزعت الفتاة .. فُزعت من جبروت الصوت واللهجة .. هتفت مذعورة وهى تتراجع إلى الخلف :

ـ من أنت ؟ وماذا تريد ؟.

وإذا بصوت (على) بواب العمارة العجوز يأتيها مرتجفًا :

ـ افتحى يا مدام (نورا) .. الباشا بوليس وعايز حضرتك .

وهوى قلب الفتاة فى قدميها وهى تغمغم مفزوعة : بوليس ؟!

وامتدت يدها إلى مزلاج الباب تفتحه وهى ترتجف .. وإذا بها فى مواجهة رجل يثير الفزع بطلعته الصارمة وجبروته البادى عليه ، بادرها محييًا فى فظاظة مخيفة :

ـ مساء الخير يا مدام .

أجابته وهى مفككة الأوصال :

ـ مساء النور يا أفندم .

ـ أنا المقدم (فتحى فرج) .

ـ أهلاً وسهلاً يا أفندم .

ـ وشقيق (نادر) .

ـ (نادر) من ؟

ـ (نادر) الذى كان معك منذ لحظات .

هوت المفاجأه على رأسها كمطرقة ضخمة ، فأفقدتها التركيز ، وجعلتها تحدق فى زائر الفجر للحظة فى بلاهة .. ولكنها سرعان ما أفاقت لنفسها ، وهتفت بفرحة ممزوجة بالذهول :

ـ أهلاً وسهلاً يا باشا .. تفضل .

ودخل الباشا بخطوات ثقيلة تعكس جبروته ، وأسرعت الفتاة تدعوه إلى الجلوس ، فجلس واضعًا ساقًا فوق ساق ، بينما أردفت هى بفرحتها وارتباكها :

ـ شرفتنى يا باشا .. أهلاً وسهلاً .. أستأذن حضرتك دقيقة واحدة ..

وهمت بأن تسرع إلى المطبخ ، ولكنها مالبثت أن تسمرت فى مكانها على نداء الباشا المخيف :

ـ تعالى يا (نورا) .

صدمتها لهجته ، ارتدت إليه مرتبكة ، وأردف هو :

ـ اجلسى .

لم تملك إلا الطاعة .. جلست قبالته تتطلع إليه فى خوف وتوجُّس ، بدا لها ككتلة هائلة من صخور ليس بها ذرة مشاعر .. بادرته قائلة :

ـ تحت أمرك يا باشا .

فتح علبة سجائره (المارلبورو) ، وأشعل منها سيجارة فى تأنٍّ ، ثم رفع وجهه إليها يسألها :

ـ هل سبق أن حدثك (نادر) عنى يا (نورا) ؟

أجابته فى أدب جمٍّ :

ـ شىء طبيعى يا باشا أن يحدثنى عن سيادتك لأنه فخور بك .

ـ وماذا قال ؟

ـ وما الذى سيقوله أخ عن أخيه الأكبر حين يكون فخورًا به ويحبه ؟

كانت كلماتها طيبة صادقة ، ومع ذلك لم تتفك عقدة أسارير الباشا قيد أنملة ، وظل يتفحَّص وجهها بنظراته المخيفة وكأنه يفتش جيوب لص حتى قتلها ارتباكًا ، ثم عاد يسألها :

ـ أنت إسكندرانية يا (نورا) ؟

ـ نعم يا باشا ..

ـ وأهلك مازالوا فى الإسكندرية ؟

أطرقت فى حزن :

ـ لم يكن لى سوى أبى رحمه اللَّه .

ـ وزوجك ؟

ـ سيادتك تقصد طليقى .. لم أعد أعلم عنه شيئًا منذ انفصالنا .

ـ ولماذا تركت الإسكندرية ؟

ابتسمت فى مرارة :

ـ هى التى ضاقت بى .

وأردفت وكأنها ترثى نفسها :

ـ بلاد اللّه مثل البشر ، تصطفى من تشاء وتضيق بمن تشاء .

وكادت خزائن الزكريات المريرة تنفتح على مصاريعها مبتلعة الفتاة ، لولا أنها سارعت بانتشال نفسها منها ، وأسرعت تسأل ضيفها بابتسامة رقيقة :

ـ ما الأمر يا باشا ؟ سيادتك تبدو وكأنك تستجوبنى .

لم يجبها الباشا بشىء ، وراح يأخذ نفسًا طويلاً من سيجارته دون أن يرفع عينيه عن وجهها ، ثم إذا به يسألها :

ـ ما حكايتك مع (نادر) ؟

آه !! هذا هو إذن الغرض الذى جاء بزائر الفجر العجيب .. وانتبهت الفتاة لنفسها .. وأدركت على الفور حاجتها إلى فطنتها ، فسارعت باستحضارها .. أجابته فى حذر شديد ، وبكلمات محسوبة جيدًا :

ـ الأستاذ (نادر) إنسان شهم ونبيل .. قابلنى فى ظروف قاسية ، وأبى أصله الطيب أن يتخلّى عنى أنا وابنى .

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ آسفة يا باشا .. لا أفهم ما تعنيه .

ـ وماذا بعد أن وقف إلى جوارك وتحسنت ظروفك ؟

ـ لا شىء سوى امتنانى لمعروفه .

ـ إذن فأنت تعترفين بأنه أحسن إليكِ .

ـ طبعًا يا باشا .

ـ وما جزاء الإحسان يا (نورا) ؟

ـ جزاؤه الإحسان يا باشا .

ـ وهل فعلتِ ذلك ؟

فوجئت الفتاة بالسؤال ، وبمغزاه المرير ، وبدت وكأنها تلقت طلقة عنيفة فى صدرها .. ولكن الطلقة بقدر ما آلمتها بقدر ما كشفت لها مطلب الباشا المحدد الذى جاء يطالبها به ، ولكن من طريق طويل ملتف .. وتعجبت من لفته هذه التى تناقض جبروته ، وقررت أن توفرها عليه ، وإذا بقرارها يعيد إليها ثقتها فى نفسها ، ويمنحها شجاعة غريبة ، وإذا بها تباغت الباشا بما لم يتوقعه :

ـ فتحى باشا .. من الآخر سيادتك تريدنى أن أبتعد عن (نادر) .

لمعت عيناه انبهارًا ، وأجابها بهدوء :

ـ برافو يا نور .. يعجبنى ذكاؤك .

رمته بابتسامة مريرة وساخرة ، ثم مضت تقول :

ـ وهل هذه تحتاج إلى ذكاء يا باشا ؟ شاب جامعى ، فى مقتبل حياته ، ابن ناس طيبين محافظين ، وشقيق لضابط مباحث مرموق .. وامرأة مطلقة ، معها طفل ، ولا أهل لها ، وتعمل مضيفة كباريهات ، ولا تعود إلى بيتها يوميًا إلا مطلع الفجر .. وضع لا يقبله عاقل ولا مجنون .

ولم يملك الباشا إلا أن يسألها مندهشًا :

ـ إذن لماذا قبلتيه أنت ؟

ـ لأنى أحبه .

ـ تحبى من ؟

ـ (نادر) .. أخوك .. وهذا هو ما لا تعرفه يا باشا ، وإذا عرفته لن تتفهمه ..

ولأول مرة يبتسم الباشا .. ابتسم بسخرية لا تقل فظاعة عن جهامته وفظاظته .. ثم إذا به يسألها متعجبًا :

ـ ما الأمر يا (نورا) ؟ لقد كنت بدأت تعجبيننى بصراحتك ووضوحك ..

ولم تهتز الفتاة .. أجابته بسخرية لا تقل عن سخريته :

ـ والآن بدأت تشك فى صراحتى ووضوحى .. ألم أقل لسيادتك أنك لن تتفهم ؟

بدا على الباشا نفاذ الصبر .. ولكن الفتاة لم تبال .. تأملته هنيهة ، ثم عادت تخاطبه فى اطمئنان وتماسك عجيب .

ـ فتحى باشا .. ضباط البوليس دائمًا ما يكونون من أصحاب الخيال الجميل ، فهل يمكننى أن أستعير منك خيال سيادتك للحظات ؟

أومأ لها بالإيجاب متذرعًا بالبصر ، فمضت تطرح ما لديها :

ـ تخيّل معى سيادتك حال إنسان شاءت ظروفه أن يُدفن حيًا داخل قبر مغلق ، مظلم ، عديم الهواء ، ليس به ثقب

واحد يدخل منـه شعاع نـور يضـىء عينيه ، أو ذرة هواء يتنفسها .. تخيّل سيادتك حال هذا الإنسان داخل قبره .. إن الموت يبدأ فـى افتراسه ببـطء عجيب .. بـطء معجـون بالعذاب .. بطء يجعله لا يموت ولا يحيا .. إنه فقط يتعذب .. يتعذب عذاب لا يحتمله بشر ، حتى يصبح كـل أملـه أن يرحمه الموت بأن يعجّل بالإجهاز عليه ..

ثم فجأة يا باشا تحدث المعجزة .. يُفاجأ هذا التعس بمن يحطم القـبر مـن الخـارج ، ويسـرع بانتشـاله ، ويسـرع بإسعافه ورد الحياة فيه ، ثم إذا به يحمله إلى جنة ..

جنة كلها نور وهواء وسعادة وحب وأمان ..

وتطلعت الفتاة مليًّا إلى الباشا بدموعها ، وأردفت :

ـ لو أنك تخيلت كل هذا يا باشـا ، فهل يمكنـك أن تتخيـل شعور هذا المسكين تجاه مبعوث الرحمة الذى فعل به هذا ؟

وقبل أن يجيبها الباشا كانت الفتاة تقول له :

ـ هكذا كنت أنا .. وهكذا صنع بى (نادر) .. أخوك ..

وبقدر ما أنقذنى من العذاب ..

وبقدر ما وهبنى من حياة ..

وبقدر ما غمرنى بالحب والحنان والسعادة ..

بقدر هذا كلـه أحبـه .. أحبـه حبًا أنـا نفسـى أعجز عن قياسه وعن وصفه .. حب لا يكاد يقل عن حبى لابنـى هذا النائم بالداخل .

وارتج الجبل .. ارتج فتحى باشا بكل جبروته وعنجهيتـه وصلابته .. ولأول مرة فى حياته يشعر بما شعر به الآن .. ووجد نفسه مـأخوذًا بصـدق الفتـاة ، وبكبريـاء دموعهـا المنسابة من عينيها .. وإذا بلهجته تتبدل تمامًا وهو يقول لها مشفقًا :

ـ ولكن يا (نورا) ..

وإذا بالفتاة تسرع بمقاطعته وهى تمسح دموعها :

ـ انتظر يا باشا .. سوف أوفر عليك الحرج وأخبرك بمـا تريد أن تخبرنى أنت به .. سأعترف لك بالغلطة البشعة التى كـاد يوقعنى فيها هذا الحب .. نعم فمثلما يُعمى الإنسان حين يسطع فى وجهه ضوء قوى فجأة ، كاد هذا الحب ـ من جبروته ـ يعمى بصيرتى ، ويسقطنى فى موضع حقير ، موضع الجاحدة الناكرة للجميل .. كاد يجعلنى أضع الجحود والنكران حيث يجب أن يكون الوفاء والعرفان بالجميل ..

ولم يملك الباشا نفسه ، قاطعها مذهولاً :

ـ (نورا) ؟

ـ أشكرك يا فتحى باشا .. لقد أفقتنى من غيبوبتى عندما سألتنى عما فعلته لـ (نـادر) ردًا على إحساته .. لم يكن مجرد سؤال ، بل مطرقة هوت على رأسى ، فردتنى إلى رشدى .

ـ بذكائك هذا كنتِ ستفيقين بى أو بدونى يا (نورا) .

وتطلعت إليه الفتاة بدموعها وهى وتقول :

ـ اطمئن يا باشا .. لقد أدركت خطئى وسوف أصححه فورًا ..

وهكذا لم يعد لدى الباشا ما يقوله .. نهض ، ووقف أمامها يتأملها حائرًا ، فما كان من الفتاة إلا أنها أنقذته من حيرته بإنهاء اللقاء :

ـ تصبح على خير يا باشا .

وتأملها الباشا بنظرة طويلة أخيرة ، ثم استدار منصرفًا ، تاركها خلفه تمسح دموعها الساخنة .

★ ★ ★

الفصل الثالث

وقف (نادر) أمام (على) البواب يهتف فيه بكل ذهوله :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟!

ـ رحلت يا بيه .

ـ من هذه الذى رحلت ؟!

ـ مدام (نورا) .

ـ رحلت إلى أين ؟

ـ لا أدرى .

ـ ومتى ستعود ؟

ـ لن تعود .

تضاعف ذهول (نادر) :

ـ كيف لن تعود ؟

ـ لقد تركت الشقة نهائيًا .

ـ تركتها إلى أين ؟

ـ لم تقل .

كاد الفتى يُجن ، هتف فى البواب العجوز :

ـ أنت تهرج يا رجل .. لقد كانت معى ليلة أمس ، وأوصلتها بنفسى إلى هنا .

ـ يا بيه حاشا لله أن أهرج مع حضرتك .. لقد أنزلنا لها الأثاث أنا وأولادى ظهر اليوم ، واستلمت منها مفاتيح الشقة ..

عصف الذهول تمامًا بعقل الفتى ، وراح يردد ذاهلاً :

ـ كيف ؟ كيف ؟

وأجابه البواب متطوعًا بتفسير الأمر :

ـ هكذا هم سكان (القانون الجديد) .. يسكنون ويرحلون فى أى وقت .

وبدا (نادر) وكأنه لم يسمع البواب ، ورفع عينيه صوب شرفة الشقة فوجدها مغلقة مظلمة صامتة ، وظل يحدق فيها بنظراته الذاهلة لبرهة ، ثم عاد يحدق فى وجه البواب باحثًا فيه عن ذرة تفسير للأمر ، ولكنه لم يجد فى وجهه سوى الحرج .. فهم بالاعتذار له والانصراف ، ولكنه عاد يسأله فجأة :

ـ ألم تترك المدام لى أية رسالة ؟

عاد البواب العجوز يهز رأسه نفيًا فى حرج .. ولم يعد أمام الفتى الذاهل سوى الانصراف .. فانصرف غارقًا فى ذهوله لا يفهم شيئًا .. مضى يهتف فى نفسه غير مصدق :

ـ (نورا) ؟! (نورا) رحلت ؟! كيف ؟! ولماذا ؟

ما الذى حدث كى تفعل هذا ؟ هل اضطرها شىء مفاجئ ؟ لكن لماذا لم تتصل به وتخبره ؟ أى مانع منعها ؟ يا اللّه ! مستحيل مستحيل !

وكاد رأسه ينفجر من الذهول والحيرة ، وهم بأن يرتد إلى البواب مرة أخرى لعله يريحه بأية معلومة ، ولكن واضح من الأمر أنه هو الآخر لا يعلم شيئًا .. وفجأة توقف هاتفًا :

ـ الكازينو !

وأسرع يقذف بنفسه داخل تاكسى ، آمرًا سائقه بالانطلاق .. وعلى غير عادته انطلق جريًا داخل الكازينو قاصدًا مكتب مديره (فايز العمرى) ، وهو رجل محترم فى خريف العمر ، أجاب الفتى الملهوف بما لم يخطر بباله :

ـ (نورا) أخذت حسابها ، وتركت العمل بالكازينو منذ ساعات فقط !

صرخ فى الرجل :

ـ كيف ؟!

هذا هو ما حدث يا أستاذ (نادر) .

ـ ألم تخبرك بالسبب ؟

ـ حاولت أن أعرفه منها بلا جدوى .

ـ ألم تخبرك بشىء عن وجهتها ؟

ـ للأسف كانت متكتمة بشكل عجيب .

وأُسقط فى يد الفتى ، وراح يغمغم كالمصروع :

ـ شىء عجيب ! عجيب !

والتفت إلى فايز يهتف فيه بكل ذهوله :

ـ لقد كانت معى ليلة أمس لأكثر من ثلاث ساعات ، ولم تتفوّه بحرف عن نية تصرفها هذا .

وأجابه الرجل فى هدوء :

ـ وكانت معنا هنا طوال الليل ، وكانت طبيعية جدًا ، ولم يصدر عنها شىء ينبئ بهذا .

ـ إذن ما الذى حدث ؟!

ـ علمى علمك يا أستاذ (نادر) .

ومرة أخرى لم يجد الفتى أمامه سوى الانصراف بحيرته وذهوله .. ومرة أخرى راح سؤاله الذاهل يرتع فى رأسه كوحش هائج :

ـ ما الذى حدث ؟! ما الذى حدث ؟!

ثم فجأة تسمَّر فى مكانه على باب الكازينو هاتفًا :

ـ أهلها ! أهلها فى الإسكندرية .. لابد أن أحدًا منهم عرف بمكانها هنا ، وأقنعها بالعودة إليهم ..

ثم إذا به يتنبه إلى أنها سبق أن أخبرته بأن والديها نزحا بها إلى الإسكندرية من الصعيد ، ولذلك لم يكن لها سوى والديها اللذين توفيا .. ثم إذا به يتذكّر طليقها .. ووجد نفسه يهتف مرة أخرى :

ـ نعم طليقها .. لابد أنه هو .

ثم إذا بسيل من الأفكار ينبثق فى رأسه : لقد أخبرته بأن طليقها بلطجى قذر .. وبنى آدم من هذا الصنف عندما يعلم بأن طليقته تحسنت ظروفها ، وصار لديها مايثير طمعه ، فإنه يسرع بالعودة إليها مرتديًا ثوب الندم والتوبة ، ولا يتردد فى الضرب على الوتر الحساس الذى يربطهما : (طفلهما) ..

ويتظاهر بالخوف عليه ، واستعداده لأن يعمل أى شىء فى سبيل تعويضه وإسعاده .. أو ربما يكون غبيًا ويفعل العكس ، فيهددها بإيذائها فى طفلها .. المهم أنه لن يعدم الوسيلة فى إخضاعها .. ولكن هل يمكن أن ينجح هذا مع (نورا) ؟ (نورا) القوية الذكية التى تعشقه بجنون ؟ لا .. ليست (نورا) التى ترضخ أو تبيع .. إذن ماذا حدث ؟ وراح السؤال المتوحش الهائج يجلد الفتى بلا رحمة .. وراح ذهوله يتفاقم ويتفاقم .. وراح اللغز ينتفخ وينتفخ من حوله حتى طوقه تمامًا ، فلم يعد يسمع أو يرى سوى كارثته ..

كان التاكسى الذى ألقى الفتى بنفسه فيه من أمام الكازينو قد اقترب من فندق (شيراتون المطار) على طريق (صلاح سالم) .. وشعر (نادر) بأنه سيموت اختناقًا بداخله ، فأمر السائق بالتوقف ، وأسرع بمغادرة السيارة .. وانحرف فى طريق جانبى بجانب الفندق .. كان الطريق طويلاً مظلمًا خاليًا من السكان والمارة ، فلا مبانى سوى الفندق على اليسار ، وسور شركة كبيرة على اليمين ، ولا صوت سوى صرصرة ريح باردة راحت تمرح فى الخلاء ، ثم إذا برذاذ المطر يبدأ فى التساقط ، ولكن الفتى مضى لا يشعر به ، ولا بالصقيع الذى يقرص فيه .. وبدا وهو يمضى وحيدًا

تحت المطر بمعطفه الأسود المجسم على جسده النحيل ، ووجهه الوسيم المتفطر حزنًا وذهولاً كملاك سقط من الجنة توًا ، ولا يعرف شيئًا عن هذا العالم الذى حوله ، ولا يعرف له طريقًا ..

ووصل المسكين إلى شقته القابعة فى نهاية مساكن (الشيراتون) .. ودون أن يفكر فى خلع معطفه المُشَرَّب بماء المطر ، وقف أمام (نورا) المطلة بكل فتنتها وروعتها وشقاوتها من اللوحة التى رسمها لها خلال زيارتها الخاطفة له هنا فى الشقة ، والتى هى مرسمه فى ذات الوقت .. وقف أمامها يتأملها بقلب ينزف حزنًا ، وبذهول يلتهم كيانه كله ، وليس بداخله سوى صرخة واحدة عاصفة : ماذا حدث يا (نورا) ؟ ماذا حدث ؟!

ودق جرس التليفون فوق مكتبه ، ولكن من يسمعه ؟ وظل يدق حتى خرس من تلقاء نفسه .. بينما الفتى البائس بجواره متسمرًا أمام اللوحة ، يحدق فيها ذاهلاً ، وكأنه يناشد صاحبتها أن تنطق ، وتنقذه مما فعلته به .

وفجأة دبَّ فيه انتباهه كاملاً .. والتفت إلى التليفون هاتفًا بانفعال طاغٍ :

- التليفون !! نعم التليفون ! فأيًا كانت تلك الظروف اللعينة التى اختطفت الحبيبة هكذا ، فلابد أنها ستفلت منها ولو للحظة .. ولحظتها ستسرع بالاتصال به .. نعم ستتصل ..

وسطع الأمل فى قلب الفتى ووجهه ..

والتفت مرة أخرى إلى الحبيبة يعانقها بعينيه ، ويهتف فيها محمومًا :

- نعم يا حبيبة القلب .. ستتصلين ، ولكن عجلى .. باللّه عليكِ عجلى قبل أن تقتلنى صدمة فراقك وقلقى عليكِ ..

ومال الفتى العاشق على الحبيبة بكل وجده ، وطبع قبلة فوق جبينها ، وهو يهمس لها كملاك يحترق عشقًا وشوقًا :

- أحبك .. أحبك يا عصفورة القلب ..

* * *

ومضت أربعون يومًا .. والفتى العاشق قلبه معلق بالتليفون .. كلما دق أسرع يخطف السماعة خطفًا بكل لهفته ، وما إن يأتيه صوت محدثه حتى تغمره خيبة الأمل ، ويئن قلبه

وجعًا ، حتى صار يكره هذا التليفون اللعين الذى كان أمله الوحيد .. وبدأ اليأس يدب فيه ، وتهالكت أعصابه ، وشحب وجهه ، ولم يعد يذوق للنوم طعمًا حتى غارت عيناه ، وصارت كعينى قط مريض .. وصار طريحًا فى الفراش لا يبرحه ..

وجاءه شقيقه المقدم (فتحى) فى زيارته المعتادة .. وراعه حال شقيقه الصغير .. وأسرع يسأله عما به .. وروى له (نادر) الحكاية وهو شبه غائب عن الوعى .. وإذا بالدهشة تأخذ بعقل الأخ الكبير ، ويهتف فى الفتى بصرامته المتأصلة فيه :

- أهذا هو ما قتلك هكذا ؟!

وهنا أفاق (نادر) والتفت إلى أخيه قائلاً فى هدوء :

- آه .. نسيت يا سيادة المقدم .. نسيت إن سيادتك لا تؤمن بشىء اسمه الحب ، وتعتبره لعب أطفال .

وازداد الأخ الكبير دهشةً وانفعالاً :

- حب إيه ؟ وأطفال إيه يا بنى ؟ يبدو أنه لا أمل فيك !

ونهض الفتى المتهالك من فراشه وهو يناشد أخيه فى أدب :

- سيادة المقدم .. لا داعى لبدء وصلتك المعهودة ..

وصرخ الضابط فى غضب :

ـ لا داعى أنت لأن تتمادى فى خيبتك أكثر من ذلك .

صُدم الفتى ، وتطلع إلى أخيه معاتبًا :

ـ خيبتى ؟!

وانفجر الأخ الكبير :

ـ نعم يابن الحاج فرج .. خيبتك .. هل يمكنك أن تخبرنى بمعنى أن تتجاوز حضرتك الثلاثين من عمرك وأنت بهذا الضياع ؟

لا بيت ، ولا أسرة ، ولا دخل تعيش منه .. لا شىء سوى مجرد شقة مفروشة تعجز عن دفع إيجارها .. ماذا يعنى جريك خلف امرأة مطلقة ربيبة كباريهات ؟ ماذا يعنى انهيارك فى الفراش لأجل امرأة ؟ ثم فى النهاية ماذا يعنى أن تخرج من فيلم هندى مع امرأة لتدخل فى فيلم هندى مع غيرها ؟ أخبرنى يا حضرة الفنان ، يا من تجاوزت الثلاثين من عمرك .. أخبرنى بمعنى واحد لكل هذا سوى الخيبة ، والخيبة الثقيلة .

ومضى الأخ الكبير فى ثورته ، بينما (نادر) واقف أمام لوحة الحبيبة ، لا تبرح نظراته الحزينة المنهكة وجهها الضاحك

الجميل ، وكأنه يستعين على غليانه بالارتواء من عذوبتها وجمالها .. حتى فرغ الأخ الثائر من وصلته ، فالتفت إليه (نادر) يسأله فى هدوء وأدب :

ـ هل فرغت يا باشا ؟

ثم أردف بأدبه :

ـ سأجيبك على كل أسئلتك هذه التى تحيرك بإجابة بسيطة .. إنك ترانى هكذا ؛ لأنك من عالم مختلف تمامًا عن عالمى .. لأنك من عجينة غير عجينتى .. أنت ولدت هكذا .. إنسان عقلانى .. قيمتك كلها فى عقلك .. وإحساسك بالحياة ينبعث من عقلك .. الحياة عندك ميزانية : مكسب وخسارة .. وطبيعى ألا تكون للمشاعر فى ميزانيتك مكان .. وطبيعى أن تكون المشاعر عندك مصدر خسارة ؛ لأنها من وجهة نظرك مضيعة للوقت والجهد .. هذا هو أنت .. وهذا هو تكوينك ، ولا ذنب لك فيه ..

وقاطعه الأخ المتعجرف ساخرًا :

ـ وماذا عن تكوينك أنت يا فيلسوف الغبرة ؟

رمقه الفتى بنظرة عتاب مؤلمة ، ثم مضى يجيبه بنفس أدبه وهدوئه :

ـ أنا من عجينة مختلفة تمامًا يا حضرة الضابط .. إنسان عاطفى .. خلقنى الله هكذا .. قيمتى كلها مركزة فى قلبى .. وإحساسى بالحياة ينبعث من قلبى .. الحياة عندى إحساس حلو .. كلمة حلوة .. ابتسامة حلوة .. أمل أعيش به وأهديه للآخرين .. الحياة عندى لحظة حب + لحظة نبل ، وليست مجموعة إنجازات .. البيت والأسرة والمال التى تعايرنى بعدم امتلاكها .. يمتلكها الكثيرون .. ولكنها أسعدت كم واحدًا من هؤلاء ؟

وتطلع الفتى إلى أخيه الكبير فى سماحه ، وهو يقول :

ـ هذا هو أنا يا حضرة الضابط .. وهذه هى خلقتى ، ولا ذنب لى فيها .

كان الفتى يتكلم ، وكأنه يلفظ آخر أنفاسه من فرط إعيائه ومرارته ، ومع ذلك لم يرحمه الأخ المتعجرف ، علّق على كل ما قاله بكلمات أشبه بالبصق :

ـ يا لها من فلسفة تصلح خطبة عصماء فى نادى (الموكوسين) ..

ثم إذا به يسدد إلى الفتى أفظع سهم كان يدخره :

ـ اسمع إذن يا فيلسوف الغبرة .. هل تعلم السبب الحقيقى الذى جعل (نورا) هذه ترميك وراء ظهرها كالنفاية ؟ تمامًا مثلما فعلت بك (أمانى) من قبل ؟ وكما ستفعل بك أية إنسانة

لديها ذرة من عقل حين تعرفك على حقيقتك ؟ السبب الحقيقى يا فيلسوف الغبرة هو أنك إنسان فاشل ! لا تملك سوى هذا الهذيان المنمّق الذى لا يُسمن ولا يغنى من جوع .. أنت تدعى أنك فنان .. فهل أقمت دليلاً واحدًا على ذلك منذ تخرجك فى الكلية التى اخترتها ؟ أين فنك الذى تدعيه ؟ بضع لوحات عادت إليك بعد طوافك بها كالباعة الجائلين ! هل هذا هو الفن ؟ الفن يا فيلسوف الغبرة إنتاج يعترف به الناس ، ويحقق لصاحبه مكانة محترمة فى المجتمع .. الفن مكسب للجميع وللفنان ذاته .. الفن فى النهايه أيضًا إنجاز واضح .. فأين أنت من هذا كله ؟

وغرس الأخ (الكارثة) نظراته النارية المسعورة فى عينى أخيه الذى ضربه الذهول ، ومضى مكملاً بكل عجرفته :

ـ اسمعها جيدًا يا فيلسوف الغبرة .. أنت إنسان فاشل ، وعار ، عار علينا وعلى المجتمع كله .

وما كاد يتمها حتى ضربته صرخة (نادر) فى وجهه مدوية ..

ـ اخرس ..

ولكن الفتى المسكين هو الذى خرس تمامًا .. فقد كانت الكلمة الباطشة التى تلقاها من شقيقه كافية لأن تطرحه أرضًا فاقد الحراك ..

* * *

الفصل الرابع

غادر (فتحى) الشقة تاركًا أخاه مكومًا فوق الأرض .. ولكن ما هى إلا لحظات حتى كان (نادر) هو الآخر يقفز خارج الشقة .. انطلق يجرى فى الشوارع المظلمة الخاوية وكأنه يجرى فى جهنم بمفرده بطولها وعرضها .. انطلق تطارده صرخة أخيه المسمومة : « أنت إنسان فاشل وعار » !! وبدا واضحًا أن وصمة الفتى بالعار قد صرعته ، وأنها دفعت به إلى حافة الجنون .. وكان مكمن صدمته هو أنه لا يدرى من أين أتته هذه الوصمة .. هو الذى فتح عينيه على الحياة لا يعرف منها غير الجدّ والاجتهاد .. أقبل على دراسته بحب ونهم فاحتفظ لنفسه بصدارة التفوق حتى فاز بكلية الطب .. ولم يتوقف نهمه للعلم عند كتب الدراسة ، بل أقبل بنفس النهم على كل ما أتيح له قراءته فى شتى صفوف المعرفة ، حتى صار بثقافته العالية نجمًا متألقًا بين أقرانه .. صادق الأكبر منه سنًا ، والأكثر منه علمًا .. لم يصادق يومًا جاهلاً أو تافهًا ..

ارتفع بنفسه فوق تفاهات الحياة وصغائرها التى تجرف الشباب إلى الضياع .. لم يشغل نفسه يومًا بالتفكير فى متعة رخيصة .. كان شغله الشاغل دائمًا أن يتعلم ويرتقى بنفسه .. أن يصنع لنفسه قيمة يعتز بها .. وفى النهاية لم يختلف اثنان ممن يعرفونه على اجتهاده ونبوغه ..

شىء واحد فقط وضعه على شُقة الخلاف الدائم مع الآخرين .. شىء وُلِدَ معه ، وجاء عصبًا رئيسيًا فى تكوينه .. « عاطفيته » .. اعتماده على قلبه أكثر من اعتماده على عقله فى تصريف أموره فى الحياة .. إنه لا يقبل على شىء إلاّ إذا أحبه .. وكان أول برهان حقيقى على ذلك هو إسراعه بترك كلية الطب ، والالتحاق بكلية الفنون الجميلة .. فمسألة الطب هذه لم تخطر له ببال فى يوم من الأيام .. لقد فتح عينيه على الحياة ليجد نفسه يحب الرسم ويرسم .. ويومًا بعد يوم أدرك أنه لن يكون فى هذه الحياة إلا رسامًا .. ومن هنا كان قراره القاطع باستبدال دراسة الرسم بدراسة الطب! مفجرًا دهشة وغضب الجميع من حوله .. ولكنه لم يبال بهم وبثورتهم ، وأقبل على دراسته فى كليته الحبيبة بنهمه ونبوغه المعهودين فيه حتى حصل على البكالوريوس بامتياز ..

وأيقن الفتى بأن تفوقه هذا ما هو إلا مباركة من السماء للمضى فى طريقه الذى اختاره عن حب .. ومضى .. استأجر شقة صغيرة مفروشة .. هى ذات الشقة التى يقيم بها الآن ، واتخذ منها مسكنًا ومرسمًا فى آنٍ واحد .. وأسرع يمسك بريشته بكل الحب والتفاؤل ، مطلقًا العنان لموهبته .. ليالى طويلة قضاها واقفًا أمام لوحاته يعمل بلا كلل .. وكان خياله الخصيب سخيًا معه ، وكانت أحاسيسه الوردية تسابق خياله

فى تدفقها ، وكانت ريشته تتلقى كل هذا الفيض فى نهم ، ثم تسرع بالارتواء من ألوانه ، لتنطلق فى النهاية محلقة فوق لوحاته ، معيدة اكتشاف مفاتن الحياة ..

وجاء يوم عيد الفنان الشاب .. يوم أن حمل باكورة إنتاجه ، وأسرع يشترك بها فى مسابقة كبرى أقامتها وزارة الثقافة .. وإذا بيوم العيد يجلب خلفه يومًا حزينًا ما كان فى الحسبان .. عادت إليه لوحاته دون أن تفوز بأية جائزة ، ودون أن يلتفت إليها أحد من النقاد .. وكانت صدمة قاسية للفتى ، ولكنه سرعان ما تجاوزها ، موصدًا بابه فى وجه الإحباط .. وانطلق يعيد الكرة فى مسابقة أخرى ، وإذا بنفس النتيجة فى انتظاره .. وغمرته الدهشة .. وراح يبحث عن تفسير لدى أهل العلم .. وجاءه الرد بأن عليه أن يأتى بجديد يتفوق به على الآخرين .. وعليه بالمثابرة وعدم اليأس .. وتقبّل الفتى النصيحة بصدر رحب ، وعاد يشحن نفسه بالأمل .. وعاد يكرر المحاولة ولكن النتيجة لم تتغير .. وهنا كانت الطامة .. اقتحم الإحباط باب الفتى ، وانطلق ينشر فى داخله الإحساس بالفشل .. وزاد الطين بلة شماتة المحيطين به ، وعلى رأسهم شقيقه الأكبر المقدم (فتحى) ، والذى لم يتورع عن معايرته بحماقته التى دفعته إلى ترك طريق الطب المضمونة ثماره من أجل هذا التهريج الذى أغرقه ، وأضاع مستقبله .

ثم إذا بالصفعة الثانية من آخر يد يتوقعها .. من (أمانى) خطيبته .. (أمانى) ! تلك الفتاة التى أحبها بجنون .. وتوجها على قلبه ملكة .. ورواها من حنانه ومن وجدانه ما كان كافيًا لأن يجعل منها طائرًا محلقًا فى السماء ، يهبه تغريدة حلوة تهوّن عليه وعورة الطريق ، ولكنها بدلاً من التغريدة أهدته ضربة معول شطرت قلبه بلا رحمة على قارعة الطريق .. وأقامت بهجرها له أول دليل قاطع على فشله فى نظر جميع من حوله ..

ومع تربص الفشل به .. ومع إدبار الحظ عنه ، ومع تسرب السنوات منه دون خطوة واحدة للأمام .. ومع شماتة الأقربين ، ثم فى النهاية مع الضربة القاصمة من (أمانى) .. مع كل ذلك خمد وهج الفنان تمامًا داخل الفتى ، وتراكم محله رماد الإحباط واليأس ، والسخط على الحياة ، وعلى كل ما فيها .. لينتهى به الأمر بأن يلقى بريشته من يده ، ويهجر لوحاته وألوانه ، ويسلم نفسه للفراغ والتسكع ، ولحياة خاوية مملة عديمة الطعم والقيمة ، حتى ساقت له الأقدار (نورا) لتصالحه على نفسه .. لتردَّ عنه يأسه الذى تمكن منه .. لتزيل غبار الإحباط عن آماله وأحلامه .. لتأخذ بيده من كبوته وتوقفه مرة أخرى على قدميه ..

وإذا بالفتاة الساحرة تنجح .. وإذا بأشلاء الفنان المتناثرة تتلملم .. وإذا بالحياة تدب فيها من جديد .. وإذا بالفنان يهب واقفًا من رقاده الذى طال ؛ لتجتاحه صحوة ساطعة جعلته يسرع مرة أخرى بالإقبال على الحياة ، والإمساك بريشته ، عازمًا على البدء من جديد ، وتعويض ما فاته ..

كانت صحوة رائعة .. ولم يكن يدرى بأنها الصحوة التى تسبق الصرعة !! نعم الصرعة ..

فها هى (نورا) تختفى فجأة كما هبطت عليه فجأة .. تختفى بعد أن طارت به إلى أعلى قمم الحب والسعادة ليسقط فى وادٍ سحيق أكثر تمزقًا وتناثرًا مما كان .. وليجد نفسه مصروعًا صرعة أشد من تلك التى صرعته إياها (أمانى) .. ومطاردًا بنفس شماتة شقيقه الكبير الوحيد ، مضافًا إليها وصمته بالعار !!

كان الفتى قد توغل فى الخلاء المظلم المترامى على جانبى الطريق الدائرى المار خلف مساكن (الشيراتون) حين انفجر صارخًا كمن فقد عقله : « لماذا ؟! لماذا أنا فاشل ؟ لماذا أنا عار ؟ ألأننى تمسكت بموهبتى التى خلقنى الله بها ؟ الأننى كنت أخلص فى حبى لمن يوهمنى بالحب ؟

ألأننى كنت صادقًا مع نفسي ومع الآخرين ؟ هل صار التمسك بالذات التى خلقها الله فشلاً ؟ هل صار الإخلاص فى الحب عارًا ؟! وماذا بقى لى كإنسان وقد فشلت فى الاثنين اللذين خُلقت لهما : « الفن والحب » ؟ وما جدوى الحياة مع فشل يترصدنى بهذا الإصرار والجبروت ؟ وما جدوى حياة موصومة بالفشل والعار ؟

ما جدواها ؟ الموت أكرم منها .. الموت أكرم منها ألف مرة » ..

وبلغ الفتى ذروة انهياره العصبى ، وحلّق شبح الجنون فوق رأسه كالشيطان ، فإذا به ينطلق جريًا قاصدًا نهر الطريق الدائرى ، عازمًا على الإلقاء بنفسه تحت عجلات السيارات المارقة .. ثم إذا بقواه تخور .. ووعيه يتلاشى ، وهو ما زال مُصرًا على بلوغ الطريق .. ولم يمنعه من بلوغه سوى سقوطه مغشيًا عليه فى حفرة كبيرة فى الرمال مثل قبر مكشوف ..

* * *

الفصل الخامس

ليل ، ورياح ، وبرد قارس ، ورمال متطايرة كالشظايا .. ومع ذلك ظل (نادر) غارقًا تمامًا فى نوم عميق فى بطن الحفرة ، وكأنما غشيته نومة أهل الكهف .. ساعات طويلة مضت قبل أن يفتح عينيه .. فتحهما بسكينة عجيبة ، ونفس هادئة مطمئنة ، وجسد مُعافى تمامًا من أى ألم .. شعر وكأنه شبع نومًا فى فراش وثير دافئ .. وكأنه فى مخدع آمن جميل .. لم تكن هناك رياح ، ولا برد ، ولا ضجيج .. ولم يكن هناك أثر لوهن أو وجع فى جسده .. فقط دهشة النُعاس هى التى كانت تغشاه ، وجعلته لا يدرك أين هو .. لقد فوجئ بعينيه معلقتين بمنظر عجيب .. منظر كأنما تم استدعاؤه من الأساطير .. سقف أزرق رائع هائل الرحابة ممتد بامتداد البصر .. وفى الوسط منه سراج مستدير منير يشع بنور أبيض (شاهى) وكأنه القمر .. ومن حول السراج المنير ثريات صغيرة رائعة سابحة ، ومشعة بنفس النور الأبيض الشاهى وكأنها النجوم .. ثم إذا بالفتى الناعس يفيق تمامًا من نُعاسه فيكتشف أن السقف الأزرق الرائع ما هو إلا السماء فى أبهى وأروع منظر لها .. وأن السراج المنير ما هو إلا القمر فعلاً .. وأن الثريات الصغيرة السابحة ما هى إلا النجوم فعلاً ..

إذن أين هو ؟ وأين آلامه وعذابه ووهنه ؟! أهو فى الجنة ؟ هل مات حقًا ، وقضت رحمة ربه أن يدخل الجنة ؟

ونهض الفتى من رقدته ، وخرج من الحفرة مسحورًا مبهورًا مستطلعًا ما حوله ، فإذا به يكتشف أنه ما زال حيًا على الأرض .. وتحسس جسده ، فإذا به معافى تمامًا يفيض بالحيوية .. وإذا بصدره منشرحًا نقيًا كآفاق الجنة .. ورفع عينيه إلى السماء ، فإذا بها وكأنها تبتسم له فى حنان .. وشعر وكأنما هناك رحمة واسعة هابطة منها لأجله وحده .. وكأنما تم غسله فى نومته من كل ما يحزنه .. وكأنما أُعيدت ولادته من جديد .. وإذا بهاتف حنون يهتف بداخله : « من ذا الذى فعل بك كل هذا ؟ من يقدر ؟ » .. وإذا بالهاتف يجيب نفسه : (الله) ..

وخشع القلب .. واستغفرت النفس .. وسبَّحت خلايا الجسد جميعها بحمد ربها ..

وانسابت الدموع من العينين حاملة معها أدران الشيطان إلى غير رجعة ، ليخر الفتى لله ساجدًا ، ولينهض من سجوده عائدًا إلى بيته مخلوقًا جديدًا تمامًا غير الذى جاء قبل ساعات قليلة !!

* * *

استرد نادر كل ما يربطه بالحياة إلا اثنتين (نورا) وريشته .. راح يقضى يومه بين القراءة والصلاة والطواف على أصدقائه ، فإذا ما خلا إلى نفسه راح فراق الاثنتين يتنازعه حتى يتأوه قلبه .. وبدا واضحًا أن (نورا) قد استقرت فى قلبه كدمعة كبيرة راحت تزداد اتساعًا مع ليالى الوحدة والفراق والفراغ ، ومع التفكير الموصول فى لغز اختفائها وقلقه الذى لا يرحمه عليها ، وأما ريشته فقد وقف شبح الفشل حائلاً منيعًا بينه وبينها .. وكلما غلبه حنينه إليها ، وهم بأن يمسك بها تذكّر عودته بلوحاته فى كل مرة خائب الرجاء .. لقد تراكم بداخله خوف مؤلم من الفشل المتوحش المتربص به ، فراح يشفق على نفسه من مواجهته والاصطدام به مرة أخرى .. وكلما همت أصابعه بأن تمتد إلى الريشة الحبيبة ، أسرع بالتراجع وهو يتفطّر ألمًا ..

وهكذا راح الفتى يعيش أيامًا صعبة ، لا يهوّن عليه من قسوتها سوى تقربه إلى الله .. ثم إذا به فجأة يجتاحه حنين جارف إلى أمه ، وبلا تردد أسرع إليها ، ووقف أمام قبرها يتحسسه ويحتضنه بعينيه فى شوق طاغٍ إلى الحبيبة الراقدة بداخله .. يااااه .. عامان كاملان مضيا دون أن يأتيها .. يا له من جُرم أقترفه فى حقها ، وفى حق نفسه .. وانسابت الدموع من عينيه وهو يهمس لها بكل ندم وخجل :

ـ آسف يا أعز الحبايب ..

وإذا به يجلس على الأرض ، ويبدأ فى تلاوة القرآن الكريم .. وخرجت الآيات من قلبه ، وهو مطمئن تمامًا إلى أن أمه الحبيبة تسمعه فى فرحة وشوق ..وقرأ الفتى لها كثيرًا .. ودعا الله لها كثيرًا ، ثم نهض منصرفًا على وعد منه بألا يتأخر عليها مرة أخرى .. وخرج إلى الطريق وقد أُضيئت نفسه بما فعله .. وسمع سائق « ميكروباص » ينادى بوجهته إلى « العتبة » ، فركب معه ..وشعر بحاجته إلى كوب شاى ساخن ، فعرج على « جروبى » بشارع « عدلى » .. وإذا بالأستاذ (سليم عارف) الرسام ، وصاحب أتيلييه (عارف) الشهير بوسط المدينة يجلس بمفرده .. وهو فنان عجوز طيب .. عرض عليه (نادر) بعض لوحاته منذ أكثر من سنة !

ولم يلتقيا بعدها .. ولكن الرسام العجوز تذكّره على الفور ، ودعاه لتناول الشاى معه .. وحينما سأله عن أخباره ، لم يخف الفتى شيئًا عنه .. وأصغى الرجل له باهتمام وحنان أبوى ، ولكنه بدا وكأنه لم يتأثر بشىء مما سمع .. بل إنه لاح على شفتيه طيف ابتسامة تعجَب لم يفهمها (نادر) .. وجاء الجرسون بالشاى ، وانتظره الفنان العجوز حتى انصرف ، ثم التفت إلى ضيفه الشاب قائلاً بلهجته الهادئة الحنون :

- ما فهمته من جملة حديثك أنك تشعر بالظلم والإحباط ؛ لأنك اجتهدت ، ولم تجن ثمرة من وراء اجتهادك .

وأجابه الفتى فى مرارة طاغية :

- نعم يا سيدى ، ويا له من شعور يقتلنى ليل نهار ..

تأمله العجوز فى إشفاق ، ثم عاد يسأله :

- ألم تسأل نفسك مرة عما إذا كنت على حق فى شعورك هذا ؟

فوجئ (نادر) بالسؤال ، بينما ابتسم الفنان العجوز ابتسامة حانية ، ثم أردف يسأله بحنانه الجميل :

- من منّا لم يسافر على طريق سريع يا (نادر) ؟

- كلنا نسافر يا سيدى .

- كلنا نسافر بسياراتنا .. وخلال سفرنا تمر بأعيننا مشاهد عديدة مؤلمة لمسافرين آخرين .. مسافر اشتعلت سيارته فجأة .. مسافر آخر دهس بسيارته عابر طريق ، وأجهز عليه .. مسافر ثالث انقلبت سيارته ومات ومن معه .. نرى كل ذلك ، ونمضى بسياراتنا ، حتى إذا ما حدث أن انفجر إطار سيارة لنا - مجرد إطار سيارة يمكن استبداله فى لحظات - انفجرنا ساخطين ، ناقمين على حظنا العاثر .. فهل نحن فى هذه الحالة نكون على حق فى شعورنا بالسخط والنقمة ؟

بُهت الفتى ، وراح يحدق فى الفنان العجوز غير قادر على الرد ، بينما أردف الأخير بنفس هدوئه الجليل :

- نعم يا ولدى .. أزمتك الحقيقية أنك لم تقارن ما أصابك بما أصاب الذين سبقوك على الطريق .. إنك لم تر سوى نفسك على الطريق ، ولم تر سوى أزمتك التى صادفتك .. وكأن أحدًا غيرك لم يسبقك على هذا الطريق ، وكأن أحدًا غيرك لم يعان مما عانيت .

وهتف الفتى وهو يكاد يبكى :

- يا سيدى .. أنا لم أقصّر فى جهد رغم قسوة ظروفى .

- ومن ممن هم أعظم منى ومنك قصّر فى جهد رغم قسوة ظروفه ؟ (فان جوخ) الذى كان يقايض لوحته بفنجان قهوة وقطعة خبز يسد بها جوعه .. أم (جان جاك روسو » الذى سرق فى طفولته ، واشتغل خادمًا فى شبابه حتى صار أعظم فلاسفة أوروبا .. أم (جان جينيه) أديب فرنسا العظيم الذى ظل نزيل سجون فرنسا لأكثر من ربع قرن ، لأنه كان يسرق ليأكل .. وغيرهم وغيرهم ..

وصمت الفنان العجوز ، بينما الفتى يحدّق فيه ، وهو يشعر وكأنما جبلٌ هائلٌ من ركام كان يحتل نفسه أخذ ينهار ويزول .. وراحت السكينة تسرى فى عينيه ووجهه .. واستراح الفنان العجوز للانفراجة التى بدت على وجه (نادر) ، فأردف بحنانه الجميل :

ـ انهض يا ولدى ، انهض وعد إلى مرسمك ، وامسك بريشتك ما دامت موهبتك بداخلك .. وتذكّر دائمًا أن أحزانك هذه ومعاناتك هى المداد الحقيقى لريشتك ، وهى التى سترفعك إلى عنان السماء ، وهى كنز ثمين اغتنمه ..

ولم يملك الفتى إلا الطاعة ، فنهض ونفسه تنازعه لأن يقبل رأس هذا الملاك العجوز ..

* * *



الفصل السادس

عاد الفتى إلى شقته بنفس تشرق فيها الحياة .. عاد وقد تحرر من كل الخيوط التى كانت تربطه بمرارة الأمس ، ومن الظلام الذى كان يلف كل كيانه ، ويعمى بصيرته ، ومن القيود التى كانت تقيده بأرض الضياع ، وأخيرًا من الأثقال التى كانت تعتلى قلبه ، وكادت توقف نبضاته ..

وها هو يستقبل أول يوم فى عمره الجديد .. دلف إلى الحمام .. استحم وتوضأ ، وخرج يصلى الصبح .. وانتابه وهو يسجد يقين مطلق بأن الله قريب .. قريب .. قريب .. وشعر برحمته تحفه من كل جانب ، فخفق قلبه حبًا لخالقه الغفور الرحيم .. ونهض من صلاته وشهيته مفتوحةً للطعام .. أسرع يتناول إفطاره ، ثم آوى إلى فراشه ، وما إن فعل حتى راح فى سبات عميق كطفل برىء ارتوى لتوه من حضن أمه ..

فى المساء كان الجو جميلاً ، وروحه منتعشة .. أدار شريط كاسيت لـ (كاظم الساهر) فإذا به يشدو : « بعدتم عن العينين ، فازداد حبكم » ..

والتفت إلى الحبيبة المطلة من اللوحة ، وكأنه يهديها الأغنية ، فكم كانت تحبها ، ولطالما غنتها له حين كانت تلقاه من

بعد غياب .. ملأ عينيه وقلبه من وجهها المتورد وابتسامتها الحلوة .. استدار فوقعت عيناه على ريشته الحبيبة ساكنة فى موضعها قبالته ، وكأنها ترنو إليه فى عتاب ، أسرع يلتقطها ويتأملها فى حنين وحب ، وكأنه يعتذر لها عن غيبته عنها .. جلس فى مقعده الهزاز مطلقًا بصره بعيدًا ، وراح يهدهد خياله كى يهديه فكرة يصالح بها ريشته .. ومضت به ساعة كاملة وهو سابحٌ فى خياله .. وإذا بخياله يسوق إليه الحبيبة الغائبة .. فإذا هى مقبلة عليه بكل فتنتها ضاحكة متدللة فى شقاوة ، تغمرها النشوة بشوقه إليها ولهفته عليها .. ثم إذا بـ (أمير) يسحبها من يدها ، مقبلاً بها بهيًا واثقًا ضاحكًا ، وكأنه ملاك صغير مخلوقٌ من النور والجمال .. جاءه يقدمها له هدية .. يا الله ! كم يحب هذا الطفل غير المسبوق فى جماله ، وبراعته ، ورجولته التى تسبق سنه !! وها هو الطفل الرائع يبادله الحب بحب أشهى وأجمل .. وها هو يبرهن على حبه بعبقرية مذهلة ، فيأتيه بالحب الكبير الغائب .. يا الله !! إنه ليس مجرد طفل .. إنه الأمل القادم بكل شروقه .. الأمل ! نعم الأمل ! ها هو أجمل ما يمكن لفنان عاشق عائد إلى الحياة من جديد لتوه أن يصالح به ريشته وألوانه ولوحاته ..

ووجد الفتى نفسه ينهض إلى لوحته الخالية المشدودة على الحامل .. ووجد نفسه يغمس ريشته فى ألوانه ، وينتقل بها إلى اللوحة .. وإذا باللوحة تبدو وكأنها تبتسم ذوبًا وشوقًا ، وهى تتلقى أول لمسة من فرشاته من بعد فراق طويل .. ويا لها من لحظة ! لحظة العناق الحار بين الجميع : الفنان وريشته ولوحته وألوانه .. واستسلمت اللوحة المشتاقة الظامئة لهدهدة الريشة الرقيقة الحانية ..

وبدأت الخطوط الرشيقة فى الإعلان عن نفسها وراحت تنساب متوازية ، ومتقاطعة ، ومحلقة فى كل اتجاه .. ثم إذا بالألوان تبدأ رقصتها ، وإذا بها تتبارى فى إظهار فتنتها .. فها هو الأحمر يصرخ بحمرته الجريئة .. وها هو الأصفر يرد عليه مختالاً بدلاله .. وها هو الأخضر يسرى بينهما برقته ورومانسيته .. وها هو الفنان الشاب يراقصهم جميعًا وهو يتأملهم منتشيًا باسمًا .. إنها ليست مجرد ألوان وخطوط .. إنها نثار وجد .. وجد حقيقى مخضب بالعشق والأمل وروعة الشروق .. فلا عجب من أن يصرخوا ويمرحوا ويرقصوا جميعًا بهذه الفتنة والروعة ..

وانطلق الفتى الفنان يحلق فى سماوات إبداعه .. انطلق يسهر لياليه محلقًا مع ريشته ولوحته وألوانه .. وراحت الليالى تحفه برقتها ووداعتها .. وكأنها تصالحه من بعد خصام ..

والحبيبة فى كل ذلك لا تغيب لحظة عن البال والخاطر .. النهار يبدأ بقبلة على شفتيها وهى تضحك فى لوحتها ، والليل أيضًا ينتهى بقبلة على شفتيها .. ويقين مُطلق فى القلب بأنها عائدة .. عائدة مهما طال الغياب ، ومهما كان الداعى لغيابها .. عائدة وما عليه إلا أن يَعد نفسه لعودتها .. يُعد لها مهرها الذى تستحقه .. وهى لا تستحق أقل من نجاح عظيم يضىء حياتها ، وينثر السعادة فى لياليها وأيامها .. نعم .. هذا هو ما تستحقه بما تركته له .. لقد تركت فى قلبه حبًّا يكفيه لأن يمضى فى أطول الطرق وأوعرها .. وأن يجمع لها النجاح من فوق الدروب ويهديه لها تاجًا مرصّعًا يليق بها وبحبها ..

ودق جرس الباب ذات مساء .. وفتح فإذا بزائرين عزيزين.. زميلته الفنانة التشكيلية الشابة (سحر وجدى) والفنان (سليم عارف) .. وسعد بهما الفتى كثيرًا .. وقادهما إلى لوحته التى فرغ منها توًّا .. ووقف الضيفان الفنانان أمامها يتأملانها طويلاً .. ثم إذا بهما يلتفتان معًا إلى (نادر) يعانقانه بنظرات الإعجاب .. وإذا بالفنان العجوز يهنئه فى حرارة :

ـ برافو (نادر) .

وإذا بـ (سحر) هى الأخرى تهتف بفرحة :

ـ رائعة يا (نادر) .. رائعة .

وشكرهما (نادر) متفائلاً برأيهما .. وسألته (سحر) وهى مستغرقة فى تأملها :

ـ ماذا سميتها ؟

ـ الأمل .

وهتفت الفتاة مبهورة بروعتها :

ـ فعلاً .. كل ما فيها يشرق بالأمل .

وشكرها (نادر) للمرة الثانية .. ودعاها هى و(سليم) إلى الجلوس ، بينما أسرع هو بإحضار الشاى .. وبادره (سليم) قائلاً :

ـ (سحر) لديها رسالة لك ..

فسألها (نادر) وهو يجلس قبالتها :

ـ خير إن شاء الله ؟

وأجابته الفتاة :

ـ حضرتك مدعو للاشتراك معنا فى بينالى القاهرة .

وعاد (نادر) يسألها مداعبًا :

ـ ومن الكريم صاحب الدعوة ؟

ـ الأستاذ (خيرى بشير) .

ارتد الشاى فى حلق الفتى من المفاجأة .. هتف مندهشًا :

ـ من ؟!

ـ خيرى بشير .

ـ مستحيل !

ودُهشت الفتاة لرد فعله وسألته :

ـ وما الغريب فى ذلك ؟!

غمغم (نادر) مذهولاً :

ـ الغريب ؟!

وأطرق لبرهة قبل أن يقول متعجبًا :

ـ هذا الرجل من قسوة نقده لأعمالى التى كنت أعرضها عليه ، كاد يقنعنى بأن أبحث لى عن طريق آخر غير الرسم .

وإذا بالفنان العجوز يبتسم ابتسامته الهادئة الحانية ..

ولم يملك الفتى المنفعل نفسه من سؤال ضيفه :

ـ هل قلت ما يدعو إلى الابتسام يا أستاذ سليم ؟

وأجابه الفنان العجوز بهدوء :

ـ رأيك هذا فى الرجل .

ووضع كوب الشاى من يده ، ثم أردف :

ـ أنت لم تفهم الأستاذ (خيرى) يا (نادر) ..

الأستاذ (خيرى) فنان أصيل قبل أن يكون موظفًا كبيرًا بوزارة الثقافة .. وهو أكثر فنانينا الكبار تعاطفًا مع الفنانين الشباب .. وهو عندما يقسو فى نقده على واحد منهم فإن ذلك يكون عن رغبة صادقة منه فى استخراج أحسن ما فيه كفنان ، وليس هدمه كما فهمت أنت .. وها هو الدليل على ذلك .. هو الذى سأل عنك رغم مقاطعتك له .. وهو الذى رشحك للاشتراك فى البينالى .. وهو الذى أرسل زميلتك كى تقف إلى جوارك .

وأُسقط فى يد الفتى .. ولم يجد ما يقوله ، فأطرق حائرًا لبرهة ، ولم يملك بعدها إلا أن يقول وكأنه يعتذر :

ـ قد أكون ظلمته .

وأطرق (نادر) وقد بدا مشوشًا إلى حدٍّ مؤلم ..

وشعر به الفنان العجوز ، فأسرع ينتشله من تشوشه ، وينير أمامه السبيل بكلمات حانية مخلصة :

ـ اسمع يا (نادر) .. هذا البينالى يمثّل لك الفرصة الحقيقية التي تحتاجها فعلاً لتوثيق نفسك كفنان .. أنا عن نفسى أرى فيك فنانًا أصيلاً .. فالذى يضحى بمثل ما ضحيت به أنت .. والذى يعانى مثلما عانيت .. والذى يتحمل ما تحملته فى سبيل فنه لا بد وأن يكون فنانًا أصيلاً .. ولكن مشكلتك كانت فى افتقادك الفرصة التى تمنحك شهادة اعتمادك كفنان .. وها هى

الفرصة تسعى إليك حتى عندك .. وما عليك الآن إلا أن تقبض عليها بكل ما أوتيت من عزم .. وما عليك إلاّ أن تعتصر موهبتك عصرًا كى تسطر بمدادها شهادة اعتمادك كفنان .

وفعلت كلمات العجوز المخلصة فعلها فى نفس الفتى ، فراح يتطلع إليه فى حب وامتنان ، وراح يسأله فى رجاء :

ـ هل ترانى سأنجح فعلاً يا أستاذ (سليم) ؟

وإذا بالفنان العجوز ينهض ، ويقف أمام لوحة « الأمل ولوحة نورا » ، ثم يجيب الفتى وهو يتأملهما :

ـ لديك الأمل ولديك الحب .. ماذا ينقصك ؟!

وإذا بكل أنوار الأمل تسطع في كل كيان الفتى الفنان ، وإذا به يلتفت إلى (سحر) يسألها :

ـ ما آخر موعد لتقديم الأعمال يا صديقتى ؟

وأجابته الفتاة سعيدة :

ـ منتصف يوليو .. أليس لديك لوحتان جاهزتان ؟

ألتفت (نادر) إلى لوحة الأمل مجيبًا :

ـ هذه واحدة .. وسأبدأ فى الثانية فورًا .

★ ★ ★

الفصل السابع

قبل حلول الموعد النهائى المحدد لتسجيل الأعمال المشتركة فى (البينالى) بيوم واحد فقط كان (نادر) يسجل لوحتيه .. وغادر الفنان الشاب دار الأوبرا ـ مقر البينالى ـ بشعور من بذل ما عليه وليس أكثر .. بل إن هواجسه وهو يمضى فى الشوارع كانت أكثر كثيرًا من تفاؤله .. فهو من كثرة ما لقيه من كبوات على درب الفن ترسب فى وجدانه إحساس مؤلم بأن مجرد الحلم بالنجاح ما هو إلا رفاهية يستكثرها على نفسه .. ولكنه ما لبث أن انتبه إلى أنه يظلم نفسه بمشاعره السوداوية هذه بعد كل ما بذله من جهد طوال الأيام الماضية .. لقد بذل ما عليه وليترك الجزاء لله .. وعندما تذكر « ربه » سرت الطمأنينة فى قلبه ، وهدأت نفسه .. وإذا به ينتبه إلى (سحر) التى كانت تسير إلى جواره صامتة منذ خروجهما من دار الأوبرا .. فهى لم تشأ أن تقطع عليه شروده ، فلربما كان فى حاجة لأن يختلى بنفسه .. ولكن الفتى انتبه لها ، وانتابه الخجل من شروده عنها ، فأسرع يداعبها مستدركًا خطأه :

ـ إيه يا جميل ؟ وحشنى تغريدك .

وابتسمت الفتاة الرقيقة بذكاء :

ـ يا بكّاش .

كانا قد بلغا كوبرى قصر النيل .. فتوقفت الفتاة مطلة من فوق سور الكوبرى .. وسرحت بنظراتها الحالمة فوق صفحة النهر الفضية لبرهة .. ثم إذا بها تسأله هامسة :

ـ أما زلت تحبها ؟

ودُهش الفتى .. فأردفت هى دون أن تسحب نظراتها من فوق الماء :

ـ الأستاذ (سليم) أخبرنى بكل شىء .

انطفأ وجه الفتى حزنًا وحنينًا ، التفت إلى النهر يغرس نظراته فيه ، ثم أجاب صديقته :

ـ لو حدث يومًا أن أخبروكِ بأن هذا النهر توقف يومًا عن سريانه ، صدقيهم ، ولكن لا تصدقى أبدًا أن قلبى توقف عن حبها !

وأغمضت الفتاة عينيها ، وهى تتلقى منه طعنة قاسية لم يقصدها ، ولكنها سرعان ما انتشلت نفسها من وقع الطعنة .. واستدارت نحوه تحلق بعينيها الجميلتين على وجهه الوسيم حتى وجدت نفسها تهمس له :

ـ يا لها من محظوظة !

وقرأ الفتى الرقيق بفطنته ما يجيش بداخلها ، ولكنه لم يكن يملك من أمره شيئًا .. وبدا عليه الحرج ، ولكن الفتاة الجميلة سارعت بانتشاله منه بقولها :

ـ نفسى فى آيس كريم .

فما كان من الفتى إلا أن التقط يدها وانطلق بها قاصدًا أقرب محل (آيس كريم) ..

وشبعت (سحر) تنزها مع (نادر) .. ولم يدخر الفتى وسعًا فى إسعادها محاولاً رد جميل وقفتها إلى جواره .. ولم يتركها إلا أمام منزلها فى حى « الزيتون » .. ودّعها واستدار منصرفًا .. مضى فى شارع (سليم الأول) يتفقد محلات الملابس الجاهزة من باب سد الفراغ لا أكثر .. وإذا به أمام (على) بواب العمارة التى كانت تقطنها (نورا) وفى يده حفيدته الطفلة .. خارجين من أحد محلات ملابس الأطفال .. وبادره (نادر) بالسلام .. ومال على الطفلة يداعبها ، ثم أخذ بيدها وسار معهما .. وإذا بالبواب العجوز يسأله عن (نورا) ، فكان جوابه نظرة حزينة فهمها البواب .. وغمغم فى أسى :

ـ كانت سيدة طيبة .

وشرد (نادر) بنظراته بعيدًا وهو يقول :

ـ حتى الآن لا أصدق اختفاءها بهذه الطريقة يا عم (على) .. كأن الأرض انشقت وابتلعتها .

وأجابه البواب العجوز فى أسى :

ـ لا بد أنه الضابط الذى جاءها ليلة رحيلها .

طلقة أطلقها الرَجل بلا قصد فى رأس (نادر) ، فتوقف يسأله مذهولاً !

ـ أى ضابط ؟

ـ ضابط مباحث .

ـ وماذا كان يريد منها ؟

ـ لا أدرى يا بيه .. لقد تركته معها فى الشقة وانصرفت ، وظل معها لأكثر من ساعتين .

راح (نادر) يحدق فى الرجل غير مصدق ، وعاد يهتف فيه :

ـ ومن أدراك أنه ضابط ؟

ـ هو قال ذلك ، والبوكس كان ينتظره أمام العمارة ..

وانفجر الفتى غيظًا ، صرخ فيه :

ـ ولماذا لم تخبرنى بذلك يا رجل يوم كنت عندك ؟

ـ نسيت يا بنى .. والسن له حكم ..

وبالكاد كظم الفتى غيظه وسأله :

ـ ومن أيةَ جهة كان هذا الضابط ؟

ـ لا أدرى يا بنى .. لقد كان رجلاً مخيفًا يصعب سؤاله .

غمغم (نادر) :

ـ مخيفًا ؟

وإذا به يهتف فى البواب :

ـ هل يمكنك وصفه لى ؟

اجتهد الرجل فى وصفه بقدر ما أسعفته به ذاكرته .. فإذا بالذهول يطوق الفتى ، وإذا به يغمغم وهو على وشك الجنون .

ـ مستحيل .. مستحيل !

ثم إذا به فجأة ينطلق جريًا تاركًا الرجل العجوز جامدًا فى مكانه من الفزع والذهول .

وفوجئ به شقيقه المقدم (فتحى) يقتحم عليه مكتبه بغضب يكاد يفجّر عروق وجهه .. دخل عليه جاحظ العينين ، مصلوب الوجه ، يحدّق فيه كالمجنون .. وتجمد الضابط فى مقعده فزعًا من هيئة شقيقه ، ومن طريقه اقتحامه للمكتب .. هتف يسأله :

- ماذا هناك يا (نادر) ؟

ودنا منه الفتى يسأله بجنونه :

- أين (نورا) ؟

- (نورا) من ؟

- (نورا) الوردة البريئة الذى دهسها وحش كاسر ليس بداخله ذرة إحساس .

ودنا الفتى بجنونه أكثر من الباشا وهو يسأله :

- كيف جمعنا ثدى أم واحدة ؟ كيف جمعتنا طفولة واحدة ؟ كيف جمعنا فراش واحد ؟ وطعام واحد ؟ وبيت واحد ؟ كيف آمن أبواى أن يتركونى ألعب معك ، وآكل معك ، وأنام معك ؟ كيف أعطيتك أنا نفسى الأمان بعد أن كبرت ووعيت وفهمت ؟ كان علىّ أن أتوقع منذ فتحت عينى عليك أنك ستسحقنى يومًا ما ، فالطيور لا تسلم من الوحوش وإن طالت عشرتها .. وها أنت قد فعلتها يا رجل .. فبماذا أرد عليك ؟

وكادت يدا الفتى تطبق على عنق الباشا فى مقعده لولا أن حركته شُلت فجأة .. فقد أطبق عليه من الخلف مخبران اقتحما المكتب تلبية لجرس الباشا الذى ضغطه خلسة ..

وتنفس الباشا الصعداء ، ونهض خارجًا من خلف مكتبه بخطواته الثقيلة ، حتى توقف أمام (نادر) المقبوض عليه بين أيدى المخبرين .. وتأمله بنظرة طويلة تتفجّر غيظًا ، ثم قال له كاظمًا غيظه :

- اذهب إلى شقتك الآن ، واخلد إلى النوم .

وإذا بالفتى يجيبه بمنتهى التحدى :

- سأذهب .. ولكن لأبحث عن (نورا) ، وسأتزوجها ، وسأمنحها عمرى كله عوضًا عن غبائك .

وإذا به ينفلت من بين أيدى المخبرين مغادرًا المكتب ، بينما الباشا جامد فى مكانه كجبل دُكّ دكًا ..

* * *

- إذن فهذا هو الذى أفزعك يا (نورا) ، وجعلك تفرين من جنة حبيبك .. وإذن أنت هناك فى منفاك تموتين شوقًا إلى حبيبك ، ولا يمنعك من العودة إليه غير الخوف .. الخوف من

وحشية الإنسان التى فاقت وحشية الحيوان .. يا إلهى !! من أين جاء هؤلاء القوم بقسوتهم هذه ؟ هؤلاء الذين يذبحون الحب فى القلوب بلا رحمة .. الذين يشعلون النار فى قلوب كل ذنبها أنها أحبت وأخلصت .. الذين يخرجون قلب يحب من جنته ليقذفوا به فى أتون جهنم .. ولكن لا يا (نورا) .. لن تكونى ضحية لهؤلاء الشياطين .. لن أتركك فريسة لهم .. سأبحث عنك .. وسأجدك .. وسأعيدك إلى جنة حبيبك .. وسأكفكف دمعة الظلم يا حبيبة من فوق خدك ولو كلفنى ذلك عمرى ، وعمرًا فوق عمرى .

هكذا انطلق الفتى الجريح فى الشوارع تعصف به ثورة نفسه ، ولكنه ما لبث أن راح يحاول استعادة هدوءه .. إنه الآن فى حاجة إلى تركيز يعينه على معرفة طريقه إلى الحبيبة .. لقد بات واضحًا أنها لم تعد إلى الإسكندرية .. إنها ما زالت هنا فى القاهرة ، وتعمل بها .. وهى لن تعمل إلا مضيفة ، فهو العمل الوحيد الذى تجيده .. إذن فهى موجودة فى كازينو أو نادى أو فندق ..

ولم يضع الفتى وقتًا .. انطلق يفتش فى الكازينوهات ، فى النوادى ، فى الفنادق .. راح ينطلق كل يوم فى ناحية مختلفة .. وفى طريقه كانت عيناه تفتش فى الشوارع ، فى المحلات ، فى

المواصلات ، وفى كل مكان يضم بشرًا .. وكان يمضى فى طوافه حتى يضربه الإجهاد فى كافة أوصاله ، فيستدير عائدًا إلى شقته ليجلس أمام الحبيبة المطلة بوجهها الفاتن الضاحك من اللوحة ، وينطلق قلبه يهتف فيها بكل عذابه :

ـ أين أنت يا حبيبة القلب ؟ أين أنت من حبيب يحبك كل هذا الحب ؟ أين أنت من حبيب تحترق رئتاه حرمانًا من أنفاسك ؟ وتنطفئ عيناه حزنًا لفراقك ؟ أى برزخ هذا الذى يحول بينك وبين فتاكِ ؟ لماذا لا تعبريه ؟ لماذا لا تهزمين خوفك وتعبريه ؟ حبيبك هنا ينتظرك .. أنت تعرفين الطريق إلى حبيبك .. ليتنى أنا الذى أعرف الطريق إليك .. لو عرفته لقطعته إليك ركضًا ولو كان مزروعًا بنار جنهم .. تشجعى يا حبيبتى .. تشجعى وعودى إلى فتاكِ الذى يعشقك قبل أن تقضى عليه نار فراقك ..

ويظل الفتى المسكين هكذا يستجير بحبيبته الغائبة حتى يطبق عليه النوم فى جلسته فينام مكانه دون عشاء أو غطاء ..

وجاءته (سحر) تطمئن عليه ، وفوجئت به شاحبًا هزيلاً ، يكاد يقترب من الموت .. لقد نسى نفسه تمامًا فى الطعام والشراب والنوم .. ولم تمهله الصديقة الرائعة .. انطلقت به إلى مطعم شهير بوسط المدينة ، وأجبرته على تناول الطعام ..

ولم تتركه إلا بعد أن شبع ، وجرت الدماء في وجهه ، ثم خرجت به إلى الشوارع تداعبه وتضاحكه ، واتجهت به إلى شارع « طلعت حرب » عازمة على إدخاله سينما « مترو » حيث يُعرض فيلم رومانسى جميل ..

ومضى معها الفتى مستسلمًا وقد عادت إليه حيويته .. وإذا به يتوقف فجأة وقد تسمرت عيناه على ظهر فاتنة تمضى أمامه ببنطلونها الجينز الضيق ، وبلوزتها المجسمة الفاقعة .. وإذا به يغمغم غير مصدق : (نورا) ؟ مستحيل ! وإذا به يركض خلفها ليستوقفها دون تفكير .. وإذا بها ليست (نورا) .. وإذا بالفتى يتجمد فى مكانه وقد انشرخ قلبه حتى إنه لم يستطع الاعتذار للفتاة الغريبة ..

ولحقت به (سحر) ، وراعها ذلك الحزن الجبار الذى انفجر فى وجهه بلا رحمة .. وكادت تأخذه فى حضنها لولا وقفتهما فى الشارع .. وتحرك الاثنان فى صمت .. وبدلاً من أن يتجها إلى السينما مضت به سحر إلى كافيتريا الأمريكين .. وجلست قبالته طالبة له عصير فواكه لتهدئة أعصابه بينما بدا المسكين غائبًا تمامًا عن الوجود ، حتى إنه لم يشعر بدموعه وهى تنساب فوق خديه ، وكأنها تطوعت بالشهادة على حب نبيل غير مسبوق .. حب لن تطفئه أيام الدهر كله ولو اجتمعت على قلب (يوم واحد) .

وبُهتت (سحر) وهى تشاهد دموع صديقها لأول مرة فى عمر صداقتهما .. ولم تملك إلا أن تسأله مذهولة :

ـ معقول ؟! إلى هذا الحد ؟

وأجابها الفتى دون أن يمسح دموعه :

ـ أية حد يا (سحر) ؟ حبى لـ (نورا) لا يعرف حدود .

ـ أية امرأة فى الكون يمكنها أن تفرط فى مثل هذا الحب ؟

وأجابها الفتى :

ـ ومن أخبرك بأنها فرطت فيه ؟ هى تحمل لى فى قلبها مثل ما أحمله لها فى قلبى .. الحب الذى أودعه الله فى هذا الكون تقاسمناه سويًا أنا و(نورا) .. وما غيبتها هذه إلا رحلة تنثر فيها الحب فى مكانٍ ما .. وبعدها ستعود .. ستعود مهما طالت غيبتها .

ولم تملك الفتاة إلا أن تتأمله مأخوذة بجلال الحب على وجهه ..

* * *

الفصل الثامن

وفُتحت أبواب السماء .. فُتحت للفتى المجتهد الصابر .. فاز بالجائزة الأولى فى « البينالى » ..

وانفجرت المفاجأة بداخله كقنبلة كادت تصرعه من الفرحة .. أخيرًا بعد صبر طويل .. بعد مرار موصول سنين طويلة .. بعد فشل متوحش احتل طريقه دون أمل فى زحزحته .. بعد وصمه بالفشل والعار .. بعد شماتة عُمى القلوب فيه .. بعد يأس وظلم ، ودموع .. بعد كل ذلك نجح .. نجح باقتدار ..

فاز بالجائزة الأولى .. نال الاعتراف به كفنان .. بل تفوق على جميع منافسيه من فنانى مصر والعرب والعالم أجمع .. من يصدق هذا ؟ من ؟!

وعندما بلغه الخبر كادت الفرحة تطيح بعقله .. انطلق فى الشوارع يعانق بعينيه كل ما يصادفه .. الناس والسيارات والمبانى ، وكل شىء .. كل شىء أمامه صار فجأة جميلاً ومحبوبًا ..

وفى الاحتفال الكبير الذى أقيم بقاعة الاحتفالات الكبرى بدار الأوبرا كاد قلبه يتوقف ، وهو يتقدم إلى وزير الثقافة ؛ ليتسلم جائزته وشيكًا بقيمتها المالية وسط تصفيق عاصف من ضيوف الاحتفال .

وأقبل عليه مراسلو الصحف ووكالات الأنباء بميكروفوناتهم وكاميراتهم ، ليدوّى خبر فوزه فى كافة وسائل الإعلام ..

وفى اليوم التالى كان يفتتح معرضة بالقاعة الخضراء بدار الأوبرا وسط كوكبة من كبار المسئولين والفنانين والمثقفين ..

ووقف الفتى السعيد يستقبل جمهوره من المصريين والعرب والأجانب .. وكم بدا وسيمًا وبهيًا ورائعًا وهو يستقبلهم بابتسامته العذبة ، وبشاشة وجهه الجميل .. و(سحر) فى كل ذلك بجواره .. لا تفارقه لحظة .. تغالب دموع فرحتها به وهى ترنو له دون أن يدرى بنظرات تفضح حبها الكبير الذى طالما جاهدت كى تبقيه حبيسًا داخل قلبها الرقيق .. آه لو يعلم ذلك الفتى الشارد عنها كم تحبه .. آه لو يعلم بأنها تعشقه قدر عشقه لحبيبته الغائبة عنه .. ولكن من قال أن (نورا) غائبة ؟ ها هى تطل بكل جمالها وفتنتها من لوحتها التى تتصدر المعرض ، وكأنها تشارك حبيبها فرحته واحتفاءه بضيوفه .. وها هو الفتى العاشق يقف إلى جوارها يعانقها بعينيه حينًا ، ثم يرسل بنظراته إلى باب القاعة حينًا آخر ، وكأنه يترقب وصولها .. إنه فعلاً يترقب وصولها واثقًا من قدومها ! هاتفٌ ما فى قلبه يهتف به بأنها قادمة .. يطمئنه بأن الله الحنون الطيب الذى كشف البأس عنه سيتم عليه سعادته ويسوقها إليه .. نعم ستأتى .. ستأتى ..

وراحت أيام المعرض تمضى حتى حل اليوم الأخير ، والفتى ما زالت عيناه على باب القاعة .. وقلبه بين ضلوعه يهتف فى ثقة عجيبة : « هيا يا (نورا) .. هيا يا حبيبتى .. هيا أقبلى .. هيا عجلى .. هيا .. »

وإذا بالمعجزة ..

ظهرت الحبيبة بالباب .. ظهرت بفتنة تدير العقل .. ظهرت بوجهها الأبيض الساطع كالبدر فى ليلة تمامه .. بملامحها الشهية الفاتنة المرسومة كأبدع ما يكون الرسم .. بفستانها الطويل المجسم على عودها الملفوف الشهى .. بابتسامتها الرائعة التى أضاءت القاعة كلها .. ظهرت وبجانبها أجمل وأشيك وأبهى طفل فى العالم : (أمير) ..

وسكن (نادر) تمامًا فى مكانه .. وقف يحدق فى حبيبته غير مصدق عينيه .. وشعر فى وقفته بأن كل ما به تركه وقفز إلى الحبيبة الفاتنة .. روحه ، قلبه ، عقله ، أنفاسه ، نظراته .. جميعهم سبقوه وقفزوا إليها دفعة واحدة يعانقونها ويقبلونها ويعاتبونها على غيبتها عنهم .. كل ذلك والفتى الوسيم الذاهل متسمرًا فى مكانه أمام لوحتها ، يحدق فيها وهى واقفة بالباب تعانقه بعينيها الجميلتين الجريئتين وبابتسامتها الساحرة .. نفس الابتسامة التى

كانت تعانقه بها حين كانت تخرج من الكازينو فتجده بانتظارها وحيدًا فى الخلاء والبرد .. ابتسامة الفرحة والإشفاق .. وكأن ذلك كان بالأمس فقط .. وكأنهما لم يفترقا إلا عشيّة وضحاها وأدركت الفاتنة ما بحبيبها فأقبلت عليه ترفل فى جمالها وفتنتها ، بينما الفتى ما زال متسمرًا فى مكانه ، وكأنه فقد القدرة على الحركة ، وكل ما استطاعه أن بسط لها يديه يتلقاها كالمسحور .. وأمسكت هى بكلتا يديه وهى تعانق كل ما فى وجهه بعينيها الهائجتين شوقًا وحنينًا وفرحة .. وراحت تهدهد يديه بأصابعها لتؤكد له أنها واقفة بين يديه حقيقة لا خيال .. وحينما تأكد وجد نفسه يسألها هامسًا مذهولاً :

ـ كيف عدتِ ؟

فأجابته هامسة وعيناها تعانقانه :

ـ سمعتك تنادينى !

ـ ولماذا تأخرتِ ؟

ـ تأخرت لأجل حبنا .. كان لا بد أن أنتظر حتى تنتصر على أعداء الحياة والحب .. على عبيد التعاسة والشقاء .. على الأحجار التى تتحرك بيننا فى هيئة بشر لتدهس الورد بلا ذنب جناه .. كان لا بد أن أنتظر حتى تنتصر عليهم ، وتضمن الأمان لحبنا من خطرهم .

ـ هم سيظلون موجودين .

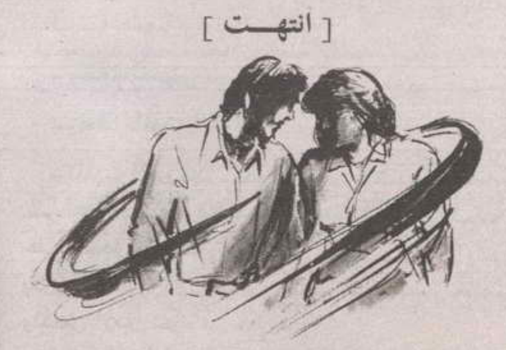
ـ ونحن أيضًا سنظل موجودين .. وسنظل ننتصر عليهم .. نحن أمناء على الحياة والحب ، ولن نفرط فيهما لهم أبدًا .

ـ تأخرتِ كثيرًا .

ـ المهم أنى عدت .. عدت ومعى الأمل .

ورفعت يد (أمير) ووضعتها فى يده ، وأمسكت هى باليد الأخرى .. واستداروا مغادرين القاعة ، بينما (سحر) واقفة بعيدًا تمسح دمعة نبيلة كانت تتوقعها .

[انتهــت]



إهـــــداء :

إلى الملاك الذى هبط على الأرض لينيرها بالحب .. إلى زوزَة ..

المؤلف

الفصل الأول

استيقظ الدكتور (فوزى) من نومه على رنين التليفون ، وما إن وصله صوت محدثته حتى تهلّل قلبه ، وسطعت كل حواسه بالفرحة .. كان صوتًا أنثويًا عذبًا داعبه بدلال ساحر :

ـ أما زلت نائمًا ؟

وهتف الدكتور الشاب غير مصدق :

ـ من ؟!

ـ معجبة .

ـ بل جميلة جميلات معجباتى .

وغردت ضحكة الفتاة فى التليفون طربًا ، وداعبته بفرحتها وخفة ظلها :

ـ مجاملة مقبولة من ملك (البكاشين) .

ـ لا يا (زوزَة) ليست مجاملة .. أنت فى نظرى أجمل بنات حواء .. وهذا الصباح الذى استقبلته على صوتك هو أجمل صباح أشرق علىّ منذ مولدى .. وهذا التليفون الذى فاجأنى

بصوتك الآن صار أحب آلة إلى قلبى ، بل صار فى نظرى ملاكًا وليس آلة .. أى إحسان من القَدَر دفعك إلى مهاتفتى الآن ، وإسعادى بصوتك الملائكى الحبيب يا ملاك الحب ؟

وصمت الدكتور الشاب الغارق فى فرحته فى انتظار الجواب ، ولكن صوت محدثته غاب عنه ، فعاد يناديها فى قلق :

ـ (زوزَة) .. (زوزَة) !

وأجابته الفتاة وهى شبه غائبة عن الوعى :

ـ نعم .

ـ أين ذهبتِ !

ـ غرقت فى رحيق كلماتك .

ـ أريد أن أراكِ ؟

ـ متى ؟

ـ غدًا فى التاسعة صباحًا ، أمام موقف الميلى باص .

وأُغلق الخط من جانب الفتاة ، بينما طبع الدكتور الشاب قبلة امتنان على سماعة التليفون قبل أن يعيدها إلى مكانها ، واستلقى على ظهره فى الفراش محلّقًا بنظراته فى سقف الحجرة ، ومتمنيًا لو كان له جناحان لحلّق بهما فى سماء الكون من فرط سعادته ..

كان الدكتور (فوزى) باحثًا متفرغًا فى الدراما المسرحية ، شابًا دافئًا فى الأربعين من عمره ، ولكنه يبدو أصغر من ذلك بوسامته وأناقته وروحه الشبابية المبتهجة .. وكان أجمل ما فى وجهه الأسمر عيناه العسليتان الدافئتان المشعتان دفئًا وحنانًا ، وأجمل ما فى قوامه صدره العريض المشعر ، وأجمل ما فى شخصيته قلبه المتدفق حبًا وحنانًا .. إنه بحق ينبوع حنان لا ينضب ، وشجرة حب لا تغيب ظلالها .. وكانت (زوزة) محظوظة بالفوز بقلبه .. وكانت هى نفسها غير مصدقة أنها فازت به ، فهو شاب تشتهيه أية فتاة ، وتهفهف من حوله الحسناوات من كل لون وطعم .. ولكنها هى وحدها التى فازت بقلبه ، وهى تستحق ذلك .. إنها فتاة رائعة الجمال ، فاتنة العينين ، تصرخ تضاريس جسدها بأنوثة مشتعلة ، وتزيدها هى اشتعالاً بشقاوتها

اللاذعة وخفة ظلها ، وهى لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها ، وفى جملتها تبدو كعصفور جميل مغرد وعاشق للحرية ، وهنا تكمن مأساة تتفطر لها أقسى القلوب حزنًا .. فالعصفور الرقيق الجميل العاشق للحرية أسير فى قبضة وحش ضارٍ ليس بداخله ذرة رحمة أو إنسانية .. إنه (حسام) زوجها ! أو بتعبير أدق سجّانها .. أردأ من أنجبته أم على وجه الأرض ..

كان (حسام) يقارب الثلاثين من عمره ، ذا وجه مستطيل أبيض وسيم ، ولكنه مصبوغ بالكآبة والسخط ، وكانت عيناه الجامدتان الواسعتان مسكونتين دائمًا بنظرات إجرامية قاسية مخيفة ، وكان همجيًا فظًا مفلوت الأعصاب دائمًا ، كان هذا هو تكوينه الطبيعى ، ولكنه لم يكتف بذلك ، بل زاد الطين بلة بإدمانه لأحقر آفتين : المخدرات ، والسرقة .. أى أن (حسام) هذا كان فى جملته كتلة أوبئة تتحرك على قدمين !!

وحين علم الدكتور (فوزى) بكل هذا ارتسمت أمامه على الفور علامة استفهام ضخمة : ما الذى أوقع مثل هذا العصفور الرقيق فى قبضة هذا الضائع المثير للاشمئزاز ؟ ولم يتردد

الدكتور الشاب فى طرح سؤاله على الفتاة ، فلم يزد ردها عن كلمة واحدة زادت من حيرته ، بدلاً من أن تزيلها : (النصيب) !!

وجاء موعد أول لقاء بين الدكتور الشاب والعصفورة الجميلة .. ووقف الفتى أمام موقف المينى باص يفتش بعينيه عن عصفورته ، والتقطتها عيناه الملهوفتان ، فأسرع إليها بلهفته وابتسامته المشرقة الحلوة ، واستقبلته هى بفرحة هائجة تزغرد فى عينيها .. أخذها من يدها وانطلق إلى كوفى شوب (الأمير) المجاور للموقف ، وأجلسها إلى جواره فى ركن هادئ ، وراح يحلق بنظراته الساطعة فوق وجهها وهو يتساءل بفرحة طاغية :

- معقول (زوزة) معى ؟!

وأجابته الفتاة باسمة ، وهى تملأ عينيها من وجهه :

- وماذا تكون (زوزة) بين معجبات الدكتور (فوزى) ؟

- القمر الذى تتضاءل حوله النجوم .

- يا دكتور !

- دكتور هذه ثقيلة الدم .. أصدقائى ينادوننى (ظاظا) .

داعبته بشقاوة :

- الله ! (ظاظا) و(زوزة) .. تصلح عنوانًا لحكاية حلوة .

- ستكون أجمل حكاية ، وأظنها بدأت .

- المهم نهايتها يا (ظاظا) .

- ستكون أجمل من بدايتها يا (زوزة) .

وإذا بسحابة أسى وتشاؤم تزحف على وجه الفتاة ، جعلت (ظاظا) يسألها مندهشًا :

- ما الحكاية ؟

- يبدو أنك نسيت أنى زوجة (حسام) ، وما أدراك ما (حسام) !

واحتقن وجه الفتاة كمدًا وغمًّا ، بينما ازدادت دهشة الدكتور الشاب وهو يسألها :

- إذا كنت لا تريدين الحياة معه ، فلماذا لا تطلبين الطلاق منه ؟

أجابته الفتاة ساخرة ممرورة :

- لماذا لم أطلب الطلاق ؟! يا دكتور أنا أطلبه منه يوميًا بالدموع والتوسل .

ـ ولماذا يرفض ؟ هل يقبل على نفسه أن يعيش معك رغمًا عنك ؟

ـ يقبل لأنه (حسام) !

ـ (حسام) ! (حسام) ! ماذا يكون (حسام) هذا ؟!

ـ نوع من المخلوقات لا تعرفه أنت .

وخُيِّل للدكتور أن الفتاة ستنهار باكية ، فرفع إليها (الكابتشينو) الذى طلبته وهو يداعبها هامسًا باسمًا :

ـ صباح الكابتشينو .

وعادت إلى الفتاة ابتسامتها الحلوة وهى تقول :

ـ آه لو تعلم كم أحبه .

هتف متلهفًا :

ـ من هو ؟

ـ الكابتشينو .

وانفجر الاثنان ضاحكين ، وتورَّد وجه الفتاة ، وسطعت عيناها بسحر عجيب .. ولأول مرة يكتشف (ظاظا) مدى فتنة عينيها وروعتهما ، ووجد نفسه يهمس لها من قلبه :

ـ أنت جميلة جدًا يا (زوزة) !

وخفق قلب الفتاة الرقيقة لأول كلمة غزل تتلقاها من حبيبها ، وراحت تملأ عينيها من وجهه المضيء بالطيبة والبشاشة ، ولكنها ما لبثت أن أفاقت من نشوتها ، وسارعت بإلقاء نظرة خاطفة على ساعتها وهى تقول للدكتور الشاب فى قلق :

ـ أنا آسفة ، مضطرة للانصراف الآن .

وهتف الدكتور فى رجاء :

ـ ما زال الوقت مبكرًا .

ـ أنت تعلم ظروفى .

وهبت الفتاة واقفة ..

وفى لحظات كان (التاكسى) ينطلق بـ (زوزة) مبتعدًا بها عن فتاها الذى وقف يشيعها بنظراته ، وهو يشعر بأن

قطعة من قلبه انتُزعت منه ، بينما راحت (زوزَة) تحث السائق على الإسراع وهى تتآكل خوفًا من استيقاظ (حسام) قبل عودتها ، ثم مالبث إحساسها بالخوف الذى ينهشها أن راح يفرز إحساسًا مريرًا بالألم والظلم ، وإذا بدمعة ساخنة تتدحرج من عينيها وهى تغمغم :

ـ يارب ، متى تفك أسرى ؟!

* * *



الفصل الثانى

بلغ (زوزَة) الخبر بأن شقيقتها الكبرى (أنوار) أصيبت بكسر فى ساقها ببلدتها بمحافظة الشرقية .. صدمها الخبر وأحزنها بشدة ، فـ (أنوار) رغم أنها لا تكبرها بأكثر من خمس سنوات ، إلا أنها تمثل لها الأم لا مجرد شقيقة ، فهى التى تولت تربيتها بعد وفاة والدتها ، ولم تتوقف عن رعايتها حتى بعد زواجها من (حسام) .. ومن هنا كانت صدمتها بالخبر ، وكان قرارها بالسفر إليها فورًا .. ولكن (حسام) غير موجود الآن بالمنزل ، ومن المؤكد أنه لن يعود قبل الفجر كعادته ، وهى لن تستطيع السفر بدون إذنه ، وأسرعت تطلبه فى تليفونه المحمول فإذا بصوت حريمى لعوب يخبرها من بين ضحكات ماجنة بأنه غير موجود ، ثم يغلق التليفون تمامًا لتتهاوى المسكينة فى مقعدها وهى تتمزق بين الهلع على أختها ، والسخط على سجانها البغيض ..

وخرجت حماتها من حجرتها ، ولم تكن تركيبتها وهيئتها بأفضل من تركيبة ابنها .. نفس الطباع ، نفس الفظاظة ، نفس الجبروت .. كانت أرملة تجاوزت الخمسين من عمرها ، ولكنها كانت ترى نفسها بنت العشرين ، وهو ما كان يجعلها دائمًا مثارًا للتهكم والسخرية .. وقفت الحماة المتصابية أمام الفتاة المسكينة تهتف فيها بغطرسة ، وكأنها لا تعلم ما بها :

ـ هل ستظلين جالسة هكـذا ؟ هيا ابحثـى عن أى شـىء تفعلينه !

رفعت الفتاة عينيها إليها فى عتاب ، لم يزد المرأة المتغطرسة إلا غطرسة وغلظة :

ـ أليس لديكِ سوى البحلقة بعينك الجامدة هذه ؟

كادت الفتاة تصرخ اختناقًا :

ـ يا ماما ارحمينى ، أختى مكسورة ، وتحتـاجنى بجوارها ، ولابد أن أسافر إليها فورًا .

ـ ماذا تقصدين ؟ أتريدين السفر إليها دون إذن زوجك ؟

ـ وأين هو زوجى ؟ إنه مع الساقطات والشمَّامين المتربى بينهم .

ـ اخرسى !

أطلقتها المرأة ، وسبقتها يدها فى القبض على شعر المسكينة وجذبه بقسوة فظيعة ، جعلت الفتاة تصرخ مستغيثة من الألم ، وهى تحـاول تخليص شعرها من قبضـة المفترية ، بينمـا المفترية تصرخ فيهـا وتتوعدهـا بالمـوت ضربًا علـى يد (حسام) .. وجاء (حسام) ، وكأنه كان فى انتظار نداء أمه !!

★ ★ ★

اقتربت الساعة من السابعة مساءً ، فأدرك (ظاظا) أن فتاته لن تأتى .. لقد كان موعدها معه هو السادسـة ، وها هو يقف فـى انتظارها حتى الآن دون أن تـأتى .. وخفق قلبـه قلقًا عليها ، ولم يجد بدًا من الانصراف وهو يتساءل فـى نفسه عن السبب فى عدم حضورها .. أيكون (حسام) هو الذى منعها من الخروج ؟ هل أصابها مكروه ؟ إنه يعلم مدى لهفتها على لقائه ، وأنها تفوق لهفته هو على لقائها ، فما الذى حال دون مجيئها ؟ وراح قلقه يزداد ، ثم مالبث القلق أن تحول إلى خوف عليها ملأ قلبه .. ماذا يفعل كى يطمئن عليها ؟ هل يذهب إليها فى المـنزل ؟ ولكن كيف و(حسـام) لا يطيقـه ، ولا يحسن استقباله .. لقد بلغت به سماجته أن طرده بنظراته فى آخر زيارة له .. ومن وقتها وهو لا يفكر فـى زيارتـه مرة أخرى ، فكيف يذهب إليه الآن ؟ كيف ؟

ومضى الفتى ينهشه القلق والخوف على فتاته ، ولم يعد أمامه سوى العودة إلى شقته ، وانتظار تليفون منها ، ولكن الليل كلـه مضـى دون أن يأتيـه تليفون الرحمـة .. ومـا إن أشرقت الشمس حتى كان الفتى يطرق باب شقة (حسام) ..

وما إن فُتح الباب حتى فوجئ بـ(حسام) يهتف فيه مذعورًا وهو يجذبه إلى داخل الشقة :

ـ الحقنى يا دكتور !

وقفز الدكتور داخل الشقة ليتجمد فى مكانه من فظاعة ماراى !!
كانت (زوزة) ملقاة فوق مقعد خشبى فى ركن من الصالة ، وقد غطت الدماء والكدمات كافة أنحاء جسدها ، وتورمت عيناها من الضرب والبكاء .. ودنا منها الدكتور الشاب مذهولاً ، ومال عليها يسألها عمن فعل بها هذا ، ولكنه اكتشف أنها شبه فاقدة النطق أيضًا ، ولم يسمع منها إلا فحيحًا ، بينما تعلقت به عيناها بنظرة الأموات وهى تحاول أن تقول له شيئًا .. وبالكاد أدرك أنها تقول له :

ـ خذنى .. خذنى .

هتف فيها :

ـ من فعل بك هذا ؟

وأجابته بإشارة من عينيها المتورمتين إلى (حسام) وأمه اللذين كان يقفان خلفه ، وقد بدا عليهما آثار العراك ، وبجوارهما وقف أحد جيرانهم .. رجل أسمر ضئيل الجسد يرتدى جلبابًا بلديًا متواضعًا ، يعرفه الدكتور معرفة سطحية عن طريق (حسام) ، هتف فيه الدكتور بانفعال شديد :

ـ كيف تركتهما يفعلان بها هذا ياعم شعبان ؟

وجاءته الإجابة من المسكينة نفسها :

ـ إنهما يضربانني منذ ليلة الأمس .

وصَعق الدكتور الشاب ، والتفت إلى (حسام) وأمه بنظرات نارية مذهولة ، بينما عادت المسكينة تتوسل إليه :

ـ خذنى معك يادكتور .. لاتتركنى هنا .

وإذ بـ(حسام) يطلب من الدكتور الانفراد به ، وإذا به يطلب منه ألا يطاوعها ، وأن يحاول تهدئتها وإبقاءها فى المنزل .. ولم يملك الدكتور إلا أن يقول له وهو يضغط أسنانه غيظًا :

ـ أنت مجرم .. مجرم ..

ومن هنا دار صراع لفظى بين الاثنين امتدّ لأكثر من ساعتين ، وانتهى بانتصار الدكتور بمغادرة الشقة ومعه المسكينة ، تاركين (حسام) خلفهما يشيعهما بنظرات مغلولة كشيطان تم ذبحه ..

* * *

أصرت (زوزة) على السفر إلى شقيقتها فى الشرقية رغم حالتها المؤلمة ، فمضى بها الدكتور الشاب ، وفى خلال ساعات كانت الشقيقتان تتعانقان فى منزل (أنوار) بقرية (الحوامدة) بالشرقية .. وصُدمت (أنوار) من حالة شقيقتها ، وراحت تصب لعناتها ودعواتها الساخطة على (حسام) وأمه ، ثم ما لبثتا أن انتبهتا للضيف العزيز الذى كان مازال واقفًا .. وسارعت (زوزة) بتقديم ضيفها إلى شقيقتها ، فرحبت به

الشقيقة بحفاوة ، وجلس الثلاثة فوق الحصيرة المتواضعة التى تفترش الأرض ، وما لبث زوج (أنوار) أن انضم لهم ، وكان رجلاً طيبًا ودودًا .. وانهمكت الشقيقتان فى حديث جانبى للحظات وهما تختلسان النظرات الباسمة إلى ضيفهما الوسيم ..

وكانت (زوزة) خلال حديثها مع شقيقتها تتطلع إليه ، وهى تكاد تطير من السعادة .. إنها لا تصدق أنه هنا معها ، بعيدًا عن جحيم سجانها ، وراحت سعادتها تتزايد وتتزايد مضيئة وجهها وعينيها ، ومع تزايد سعادتها راحت آلام جسدها تتلاشى ، وراحت قواها تدب فى جسدها من جديد ، وعادت إليها حيويتها كاملة ، ولم تمض ساعة على جلستهم حتى كانت آثار العلقة الثقيلة التى تلقتها طوال ليلة كاملة قد تلاشت تمامًا ، وكأنها كانت علقة وهمية فى كابوس داهمها أثناء نومها ، وفوجئ بها الدكتور الشاب تهتف به فى فرحة هيستيرية :

ـ (ظاظا) نوّرت الشرقية بأكملها .

وغمرت السعادة قلب (ظاظا) لاستعادة فتاته لعافيتها ، وأجابها مبتسمًا :

ـ متشكر يا (زوزة) .

ـ أنا التى أشكرك يا فارسى .. إخراجك لى اليوم من بيت (حسام) بهذه الطريقة جعلك فى نظرى سيد فرسان البشر .

قالتها الفتاة بامتنان صادق ، جعل الدكتور الشاب يأخذ بكفها الصغيرة بين راحتيه قائلاً لها بكل حنان :

ـ انسى يا (زوزة) ، انسى كلّ ما حدث يا حبيبتى .

ـ نسيته يا (ظاظا) .. وجودك معى يكفى لإحيائى من الموت .

وتعانقت عيون الحبيبين ، وحلّق كل منهما بقلبه وجوارحه فى جنة الآخر .. وانفصلا تمامًا عن (أنوار) وزوجها ، حتى سمعا صوت (أنوار) :

ـ إحم ، إحم .. نحن هنا ..

فالتفتا إليها بفرحتهما ، ثم ما لبث (ظاظا) أن التفت إلى (زوزة) هامسًا لها بحاجته إلى الحمام ، فأسرعت الفتاة تقوده إليه وهى ممسكة بيده بفرحتها الطاغية .. كان المنزل ريفيًا شديد التواضع ، ولا شىء فى الحجرة التى يجلسون فيها سوى حصيرة بالية من القش .. وكان الحمام عبارة عن قاعدة بلدى مستورة بنصف جدار طينى وبدون سقف ، قادته إليه (زوزة) عبر حوش صغير شبه مظلم .. وبدا الحرج الشديد على الفتاة وهى تعتذر لضيفها عن تواضع المنزل ..

وفرغ (ظاظا) من حمامه ليجد العشاء فى انتظاره ، وأجلسته (زوزة) بجوارها وراحت تُلِحُّ عليه فى تناول الطعام ، دون أن ترفع عينيها الساطعتين بالفرحة عن وجهه حتى فرغ من عشائه ، ومن العشاء إلى الفراش ، حيث قادته (زوزة) إلى سرير خشبى متواضع ، فى حجرة طينية مطلة على حارة ضيقة عبر نافذة خشبية كالحة لاتكاد ترتفع عن الأرض .. ودخل (ظاظا) فى الفراش ، وسحبت (زوزة) الغطاء فوقه هامسة له :

ـ تصبح على خير يا أجمل (ظاظا) فى العالم ..

ـ وأنت من أهله يا حبيبتى .

وانسحبت الفتاة فى هدوء ، ولكنها ما لبثت أن توقفت بالباب ، وراحت تملأ عينيها من حبيبها الملائكى حتى سمعت صوت (أنوار) تناديها ، فأغلقت الباب برفق شديد ، ومضت إلى أختها ..

* * *

قبل أن تحل ظهيرة اليوم التالى كان (ظاظا) يستقل الأتوبيس عائدًا إلى القاهرة ، تاركا حبيبته لدى شقيقتها وزوجها .. وما إن استرخى فى مقعده ، حتى وجد نفسه سابحًا فى خياله وأفكاره ، وسمع هاتفًا بداخله يتساءل فى دهشة :

ـ ماذا يحدث ؟ وكيف بلغت الأمور هذا الحد بهذه السرعة ؟ إنه لم يتعرف إلى (حسام) و(زوزة) إلا منذ شهرين أو أقل فى لقاء صدفة عند أحد معارفهم .. لم يكن أكثر من لقاء عابر ، ولكنه انتهى بدعوة (حسام) له لزيارتهما .. ولم يجد الدكتور الشاب مفرًا من تلبية الدعوة ، خاصة عندما أكدتها الزوجة الشابة .. ومن هنا بدأت علاقته بالزوجين الشابين ، وراحت تتوطد مع تعدد الزيارات .. وخلال هذه الزيارات لم يعرف عنهما سوى أنهما زوجان متحابان متفاهمان .. لم يظهر من (حسام) سوى أدبه وهدوئه وحفاوته به ، ولم يظهر من زوجته الشابة سوى ذوقها ورُقيِّها وحفاوة تفوق حفاوة زوجها .. وكانت شقتهما صغيرة متواضعة ، ولكنها بدت له مريحة دافئة بحفاوة الزوجين الشابين به .. وأنس لهما الدكتور الشاب ابن العائلة العريقة رغم الفارق الاجتماعى الكبير بينه وبينهما .. وراح إحساسه بدفء صداقتهما يتنامى يومًا بعد يوم ، إلى أن جاء يوم فوجئ فيه الدكتور الشاب بالبيت الهادئ مشتعلاً بشجار فظيع بين الزوجين ، وفوجئ بـ (حسام) الهادئ المهذب وقد تحول إلى وحش مسعور يحاول الفتك بزوجته ، بينما الزوجة تستميت فى الدفاع عن نفسها ضد سبابه وتطاوله ، واتهاماته المشينة لها ، كانت تذود عن نفسها وهى تنتفض من شدة البكاء والفزع ، وراح الدكتور يجاهد فى تهدئتهما وهو

غارق فى ذهوله .. ومن خلال هذا الاشتباك الدامى انكشف المستور للدكتور ، ورأى لأول مرة (حسام) على حقيقته .. فوجئ بأنه ليس أكثر من بلطجى مدمن ومتوحش .. وأن الزوجة المسكينة ما هى إلا عصفور رقيق يتيم أسير فى قبضة هذا البلطجى اللعين .. وها هو القدر يسوقه لتخليص العصفور المسكين من قبضة سجانه اللعين ، ولكن هل سيسلِّم السجَّان بهذه النتيجة ؟

* * *



الفصل الثالث

ما إن دلف الدكتور الشاب من باب شقته حتى سمع رنين التليفون .. رفع السماعة ليكتشف أن طالبه هو (حسام) ، الذى ألح فى مقابلته فورًا .. ودون أن يبدّل ثياب سفره أسرع إليه الدكتور فى شقته ، ليجلسا معًا وقد احتلا لأول مرة موقع الغريمين ، ورغم مجاهدة (حسام) لنفسه كى يبدو ودودًا ، إلا أن نظرات عينيه كان يهدر فيها طوفان من الغل والإجرام .. ولم يخف ذلك على الدكتور الشاب المعروف بدهائه فى قراءة النفوس ..

ودار بين الغريمين حوار طويل استماتت فيه (حسام) فى تبرير ما فعله بزوجته .. وكان رد الدكتور عليه بمنتهى الهدوء بأن ما فعله بها هو جريمة تكفى لإدخاله السجن .. وجاءت أم (حسام) هى الآخرى لتتدخل فى السجال الدائر بين الغريمين مطالبة (حسام) بتطليقها .. وهنا انتبه (حسام) لأمه ، وإذا به ينقلب عليها ثائرًا ليدخلا ضد بعضهما فى وصلة ردح اتهمها خلالها (حسام) بكراهية زوجته والافتراء عليها ، وأنها كانت سببًا دائمًا فى فتكه بها ، وراح يذكِّرها بمواقف كثيرة تكشف عن ظلمها للمسكينة ، ومعاملتها لها دائمًا على أنها ضرتها وليست زوجة ابنها .. ومن جانبها

لم تصمت الحماة المتصابية على هذه الاتهامات ، وراحت ترد عليها بدعوات السخط عليها وعليه هو أيضًا .. كل ذلك والدكتور الشاب صامت مصغٍ ، ينقل بصره بين الاثنين وقد بدوا مثل وحشين مفترسين انقلبا على بعضهما .. ولم يستطع الدكتور الشاب الاحتمال أكثر من ذلك ، فأسرع بالانصراف رغم استماتة (حسام) فى إبقائه ، لا لشىء إلا لرغبته المستعرة فى معرفة نية غريمه ..

وخرج الدكتور إلى الطريق مختنقًا مهمومًا ، وقد سطَّر فى نفسه قرارًا قاطعًا لا رجعة فيه : « لا بد من تحرير هذه الأسيرة المسكينة من قبضة (حسام) وأمه » ..

ومضى الفتى عائدًا إلى شقته .. كان الإجهاد قد بلغ به مداه ، فهو فى الحقيقة لم يغمض له جفن فى بيت (أنوار) ، فلا المكان ولا الفراش كانا يساعدان على النوم .. لذلك ما إن ألقى بنفسه فى فراشه حتى راح فى نوم عميق ، لم يستيقظ منه إلا ظهيرة اليوم التالى على رنين التليفون ، وما إن وضع السماعة على أذنه حتى تهلل قلبه .. إنه صوت الحبيبة يغرد :

ـ ماذا تفعل عندك ؟

وهتف الفتى فرحًا :

ـ حبيبة (ظاظا) .. وحشتينى ، أدفع عمرى كله وأراك الآن !

ـ بل ادفع فقط أجرة المواصلات ، وتعال فورًا .

هتف غير مصدق :

ـ معقول ؟!

ـ لو أمرتنى لأتيتك أنا فى لمح البصر .

ـ بل أنا القادم فورًا .

ـ إذن هيا ، أسرع .

وإذا بالفتى يقذف بالسماعة فى مكانها ، وإذا به يقفز من فراشه كالنحلة .. ومن الفراش إلى الحمام ، إلى استبدال ملابسه ، وأخيرًا إلى الشارع .. وفى أقل من ساعتين كانت (زوزة) تستقبله بفرحة طاغية ، وتجلسه بجوارها وهى محمومة بفرحتها به ، واندفعت تقبله بعينيها فى كل مواضع وجهه ، وهى مطبقة على يديه بيديها ، وتهتف فى (أنوار) بفرحة هيستيرية :

ـ (ظاظا) يا (أنوار) .. (ظاظا) .

وأجابتها (أنوار) مشفقة عليها من جنون انفعالها :

ـ اهدئى يا فتاة .

ولكن الفتاة المحمومة بالحب وبالفرحة لم تهدأ .. بل راحت تتشاقى على فتاها بجرأة عجيبة أثارت دهشة الفتى نفسه وحرجه .. ومضت الساعات بين فرحة (زوزَة) بالضيف الحبيب ، وبين قيام (أنوار) وزوجها بواجب الضيافة حتى توغل الليل ، وحان موعد النوم .. ووجد (ظاظا) نفسه فى ذات الفراش الذى كان فيه منذ ساعات قليلة فقط ، ولكنه نام فيه فى هذه المرة بعمق ..

* * *

عتمة قاحلة ، وبرد قارس ، ورياح تزمجر كوحش جائع ،و(زوزَة) تجلس بمفردها فوق كنبة خشبية بالية أمام المنزل ، وقد جمدت ملامحها ، وتسمَّرت نظراتها أمامها على لا شىء فى توتر مريع مكبوت ، وبدت مما هو مرسوم على وجهها ، وكأن كيانها كله يُطحن بين شقى الرحى ، وأن عقلها مطحون بالتفكير فى أمرٍ خطير .. ومن آن لآخر كانت الفتاة تلقى بنظرة قلق على نافذة الحجرة التى يرقد بها فتاها .. وبدت ساعات الليل البهيم للفتاة كسلحفاة كسيحة عاجزة عن الزحف ، ولكن الشمس أشرقت فى النهاية .. وجلست (زوزَة) على حافة فراش (ظاظا) تتأمله فى قلق عاصف .. وجاهدت بكل قواها كى تكبت توترها قبل أن توقظه .. وفتح الفتى عينيه على ابتسامة شاحبة منها :

ـ صباح الخير يادكتور ..

دُهش الفتى :

ـ دكتور ؟!

ـ من فضلك أريد التحدث إليك بعيدًا عن هنا .

ازدادت دهشة الفتى ، ولكنه لم يملك إلا الاستجابة .. وفى دقائق كانا يقفان معًا على حافة حقول الأرز الممتددة خلف بيوت القريةَ .. وفوجئ الفتى بحبيبته تقف أمامه محدقة فيه بنظرات تهدر بالتوتر والقلق دون أن تنطق بشىء ، ونفد صبره من طول صمتها ، فهتف فيها قلقًا :

ـ (زوزَة) ، ما الأمر ؟!

استمرت الفتاة تحدق فيه بنظراتها المضطربة للحظة ، ثم إذا بها تباغته بسؤال عجيب :

ـ دكتور (فوزى) ماذا تعرف عنى ؟

فوجئ الفتى بالسؤال ، هتف فيها بدهشته :

ـ (زوزَة) ، ماذا بك ؟

ـ أرجوك يا دكتور ، أجبنى .

ـ أعرف عنك كل خير ، فتاة طيبة ، وبنت ناس ، أوقعها حظها العاثر فى قبضة مجرم .

وإذا بوجه الفتاة يتخشب وهى تنظر فى وجهه قائلة فى جدية :

ـ وأنا أيضًا مجرمة !

هوت الكلمة فوق رأس الفتى كالحجر ، رددها مذهولاً :

ـ مجرمة ؟!

وما لبث أن وجد نفسه يبتسم مداعبًا :

ـ ما أخف دمك يا فتاة !

ـ أنا لا أمزح يا دكتور ، إنها الحقيقة !

عاد إلى الفتى ذهوله :

ـ أية حقيقة ؟!

ـ (حسام) مسجل خطر سرقة وقتل !

هتف فزعًا :

ـ ماذا ؟!

ـ وأنا أيضًا .

مادت الأرض بالفتى ، كاد يسقط على الأرض فاقدًا الوعى ، ولم يمنعه سوى كبريائه ، راح يتفرس فى وجهها بنظراته المصدومة ، ليتبين إذا كانت تهذى أم تعى ما قالته .. وأدركت الفتاة ما يدور بنفسه ، فأردفت بهدوء مبطن بالنار ..

ـ ما قلته حقيقة يا دكتور ، وليس هذيانًا .

أمسك الدكتور بزمام عقله حتى لا يُجن ، غمغم بصوت مذبوح :

ـ هل من تفسير ؟

سحبت الفتاة نظراتها المتخشبة من فوق وجهه ، واستدارت نحو الحقول تحدق فى المجهول ، وكأنها تستخرج منه شيئًا مخزونًا فيه ، وأخيرًا تكلمت :

ـ تزوجنى (حسام) فى بيت أسرتى ؛ لأن ظروفه لم تكن تسمح له بتدبير مسكن مستقل ، وأقام معنا أنا وإخوتى (أنوار) و(أحمد) و(ياسمين) .. كان (أحمد) وقتها فى الرابعة عشرة من عمره ، بينما ياسمين لاتزيد عن الخامسة .. وبمجرد أن تزوجنا اعتبرناه رجلنا المسئول عنا .. وللحق كان (حسام) طيبًا وكريمًا معنا ، وكان قد بدأ يعمل فى تجارة الأجهزة المنزلية المستعملة ـ هكذا أخبرنا ـ ولكنه لم يكن له محل يمارس فيه

تجارته ، فكان يجلب بضاعته إلى المنزل ويصرّفها منه .. وراجت تجارته ، وراحت النقود تتزايد فى يده ، وراح يزداد سخاءً معنا أنا وإخوتى ، مما زادهم حبًا فيه وتعلقًا به ..

وهكذا مضت بنا الأيام يسيرة حلوة حتى استيقظنا ذات ليلة مشئومة على صوت البوليس يملأ المنزل ، ويقبض علينا أنا و(حسام) و(أنوار) ، ولم نفق من الصدمة إلا ونحن فى السجن بتهمة تكوين تشكيل عصابى للسرقة !!

انتهى الكلام ..

وأطبق الصمت ..

تمدّد الصمت الثقيل فى الفضاء المحيط بالفتى والفتاة وكأنه يستعد لاستقبال الموت المجنّح ، وبالفعل تجمّد الدكتور الشاب فى وقفته حتى بدا وكأنه مات حقًا ، وظلت نظراته جامدة على وجه الفتاة ، وظل فمه مطبقًا وكأنه أُحيك فى بعضه بخيط سميك ، وبدا ظاهريًا وكأنه مات مشنوقًا بحبل غليظ ، بينما فى داخله كانت تدوّى قعقعات زلزال مجنون لم يترك جنبًا من جنباته إلا وضربه بوحشية .. أما الفتاة فقد بدت وكأن الكون كله بسماواته وأجرامه يتهاوى فوقها .. تهاوت على ركبتيها ، وألقت بوجهها فوق كفيها ، وراحت ترتج ببكاء عنيف .. والتفت إليها الفتى المذبوح ، وراح ينظر إليها من أعلى وهو مازال

عاجزًا عن الحركة والنطق ، ولكنه أخيرًا جثا أمامها على ركبتيه ، ومد يده يرفع كفيها عن وجهها ، ويسألها بصوته المذبوح وهو ينظر فى عينيها الحمراوين :

ـ هل اشتركت معه فعلاً فى هذا ؟

تأملته الفتاة بنظرة طويلة ، وهى ترتج بعنف ، ثم أجابته :

ـ أقسم لك بالحب الذى دفعنى إلى مصارحتك ، ومنعنى من أن أخدعك ، أننى لو كنت شككت للحظة واحدة فى حقيقته لأبلغت عنه بنفسى فورًا .

وخمد الزلزال داخل الفتى ، أخمده القسم الذى لا يرده عقل ، ووجد نفسه يسألها مندهشًا :

ـ ولماذا لم تقولى ذلك للبوليس والمحكمة ؟

ـ قلت كثيرًا ، وصرخت كثيرًا ، ولم يسمعنى أحد ، فقد كانت كل الأدلة ضدنا .

راحت عينا الفتى المذبوح تفتش فى وجهها ، فلم يجد فيه غير الصدق ، فعاد يسألها بذهوله :

ـ ولماذا لم تتركيه بعد خروجكم من السجن ؟

ـ لأنه هدّدنى بفضحى أمام أى رجل غيره أرتبط به.

ترطّب قلب الفتى ، وإذا بنار الصدمة تتلاشى منه ، لينساب فى مكانها شعور بالشفقة والرثاء .. وسرى شعوره هذا فى نظراته وفى صوته .. احتضن وجهها بكفيه فى حنان ، وراح يعيد سؤاله عليها فى رجاء :

ـ أنت لم تشتركى معه يا (زوزة) فى هذا ، أليس كذلك ؟

وأجابته الفتاة وهى تتعلق بعينيه :

ـ أنا ابنة ناس طيبين كما قلت أنت ، خدعها (ابن حرام) باسم الحب .

وراحت الفتاة تمسح دموعها ، كى تستطيع رؤيته ، ثم أردفت :

ـ لا يهمنى الآن أن تحبنى أو تبقينى معك بقدر ما يهمنى أن تصدقنى ..

وارتج قلب الدكتور الشاب ، ارتج لصدقها ، وارتج أكثر لهول الظلم الذى وقع عليها ، وعاد يفتش فى وجهها بنظراته الحزينة ، فلم يجد فيه إلا البراءة والمرارة والصدق .. هنا اختفت من أمامه الصورة المفزعة التى تجسدت أمامه فى بداية الصدمة .. صورة الفتاة المجرمة رد السجون ، وحلت محلها صورة المسكينة المظلومة التى ضيعتها قلة خبرتها بالحياة وبالبشر ، واجتاحه فيض من الشفقة عليها ، ليجد نفسه فى النهاية يمد يديه ، ويأخذها فى حضنه فى حنان دافق ، وراح يضمها فى صدره بقوة وكأنه يريد أن يحشرها داخل

ضلوعه ، بينما الفتاة ترتج بعنف من شدة بكائها .. وإذا بقلبها العصفورى يتلقى أجمل كلمات سمعتها فى عمرها كله :

ـ انسى يا (زوزة) .. أنت لم تقولى شيئاً ، ومن الأصل لم يحدث شىء مما قلتيه .. أعتبرى الأمر برمته كابوساً واستيقظت منه .. ما مضى قد مضى .. أنت الآن (زوزة) حبيبة (ظاظا) .. وليس هناك فى هذا العالم أشرف ولا أكرم من (زوزة) حبيبة (ظاظا) ..

وصمت (ظاظا) .. صمت وهو يعلق وجه (زوزته) الجميل بنظراته الدافئة الحنون ، أما الفتاة فقد راحت تحلق بنظراتها الهائجة فى وجهه الملائكى .. وفوجئت بأنها لا تراه بشراً ، بل ملاكاً يسطع وجهه بأنوار النبل والرحمة والحنان ! كيف لم تره هكذا من قبل ؟ ومضت تحلق بنظراتها فى وجهه مبهورة مفتونة .. وإذا بابتسامتها الرائعة تشرق فى وجهها المبلل بالدموع ، وإذا بالغم الثقيل يفك قبضته عن قلبها ويتلاشى ، لتحل محله فرحة طاغية ، وإذا بالفتاة تمسك بيد فتاها النبيل وتضع عليها قبلة امتنان وعرفان بالجميل ..

وإذا بالفتى يقول لها :

ـ هيا بنا .

ـ إلى أين ؟

ـ نعود إلى (حسام) !!!

* * *

الفصل الرابع

لم يصدق (حسام) ما يسمعه، هتف فى الدكتور (فوزى) مذهولاً :

- ماذا تقول ؟!

كان (حسام) يقف وسط الحجرة ينقل عينيه الجاحظتين المرعبتين بين الدكتور (فوزى) و (زوزَة) اللذين كانا يجلسان بمقعدين متجاورين .. كان الدكتور الشاب يجلس واثقًا هادئًا واضعًا ساقًا فوق ساق فى ثقة مبهرة ، ولم تهتز له شعرة أمام انفعال (حسام) ، بل أجابه قائلاً :

- أقول لك ما سمعته يا (حسام) .. أنا و (زوزَة) نحب بعضنا .

- (زوزَة) من ؟

- هذه .

دنا منه (حسام) متشككًا فى سلامة قواه العقلية ، سأله :

- ألا تعرف من تكون هذه ؟ إنها زوجتى ؟

- طلّقها ..

بُهت (حسام) ، وبدا وكأنه يتمدّد ويتضخّم من الصدمة ، وبدت عيناه كعينى شيطان أصابه الجنون ، وبدا فى جملته مخلوقًا مرعبًا مخيفًا .. ولكن كل ذلك لم يحرك شعرة واحدة فى رأس الدكتور الشاب ، بل خاطبه هادئًا واثقًا :

- اجلس يا (حسام) ، وتعامل معنا بهدوء كما نعاملك .

تفرسه (حسام) بنظراته المرعبة طويلاً ، ثم قال من تحت أسنانه :

- قل ما عندك يا دكتور ، إنى أسمعك .

تبادل الدكتور نظرة طويلة مع (زوزَة) ، ثم التفت إلى (حسام) يخاطبه فى رصانة :

- هناك بديهية يا (حسام) يعرفها الإنسان والحيوان على السواء ، وهى أنه لا عِشرة بالإكراه .. و (زوزَة) لا تريد العيش معك ، ولا أعتقد أنك تقبل على نفسك أن تعيش معها بالإكراه .

التفت (حسام) إلى (زوزَة) بنظراته المرعبة متسائلاً :

- بالإكراه ؟!

وأجابته الفتاة فى سخط :

ـ نعم يا (حسام) بالإكراه .. منذ خروجنا من السجن وأنا أتوسل إليك يوميًا بدموعى أن تطلقنى ، ويكون ردك تهديدى بفضيحة السجن الذى جررتنى إليه ظلمًا .

ـ وهل أخبرته أيضًا بموضوع السجن ؟!

ـ نعم أخبرته .

غمغم ساخرًا :

ـ يا لها من شجاعة !

وتدخل الدكتور قائلاً :

ـ لا داعى للابتعاد بنا عن موضوعنا يا (حسام) .

عاد إليه (حسام) بنظراته المريعة :

ـ أكمل يا دكتور .. ما غرضك من طلاقها ؟

ـ أن أتزوجها .

ـ تتزوجها ؟!

ـ نعم يا (حسام) .

ـ أفهم من ذلك أنك تحبها ؟

التفت الدكتور الشاب إلى فتاته يعانق وجهها بعينيه وهو يجيبه :

ـ نعم يا (حسام) أحبها .. أحبها بقدر ما فى هذا الكون من حب .. إنها توأم روحى الذى قضيت عمرى كله أبحث عنه .. إكسير الحياة الذى أحيانى من جديد .. الروح التى عانقت روحى فى الجنة منذ أن كنا أرواحًا هائمة فيها .. نعم يا (حسام) أحبها .. أحبها ولن أفرط فى حبى لها ، ولو كان الثمن حياتى نفسها .

وصمت الدكتور الشاب ، بينما ظلت عينا (حسام) متسمرتين على وجهه ، وشفتاه الغليظتان مفتوحتان فى ذهول كحفرة كئيبة مظلمة ، وبدا واضحًا أن الذهول ضربه فى عقله ضربة قاضية ، وراح لبرهة يلتهم الدكتور الشاب بنظرة مسعورة ، ثم التفت إلى الفتاة بكل ذهوله ليسألها :

ـ وأنت يا مدام : ما ردك ؟

وإذا بالفتاة تجيبه فى شجاعة بكلمة واحدة :

ـ أحبه !

كاد يقع المحظور ، ويقفز الوحش المسعور فوقها ليفتك بها ، ولكن شيئًا ما بداخله منعه من فعلها .. تراجع إلى مقعد

خلفه ، جلس عليه فى هدوء ، وأشعل سيجارة ، ثم رفع عينيه الجامدتين صوب الحبيبين ، وراح يتفرسهما بنظرة مسعورة طويلة ، وبعد أن ملأ عينيه منهما جيدًا نظر إلى الدكتور الشاب قائلا بهدوء يطوى تحته براكينه المجنونة :

ـ انهض واخرج من بيتى فورًا ، ولا ترينى وجهك مطلقًا بعد الآن .. إننى أمنحك الآن عمرًا جديدًا ، فإذا كنت لا تريده تأخر فى مكانك لحظة واحدة .

ورغم جبروت التحذير ، وجدية صاحبه ، إلا أن الدكتور الشاب لم تختلج له عضلة ، بل هم بأن يرد عليه لولا أن الفتاة سارعت بوضع يدها على فمه ؛ لتمنعه من النطق .. لقد أدركت بسرعة ما وصل إليه حال (حسام) ، وجديته فيما قاله ، وإذا بها تلتفت إلى الدكتور قائلة فى رجاء :

ـ من فضلك يا دكتور ، انصرف الآن .

فوجئ الدكتور بمطلبها ، ووجد نفسه يحدجها بنظرة ذهول وعتاب .. ولكن الفتاة أردفت قائلة :

ـ من فضلك يا دكتور ، أنا التى أطلبها منك ، انصرف الآن من فضلك .

ولم يملك الدكتور إلا النهوض والانصراف ، بعد أن حدجها بنظرة عتاب صب فيها كل مرارته !

★ ★ ★

لم يعرف الدكتور (فوزى) كيف بلغ شقته .. قطع الطريق وهو شبه أعمى ، وشبه فاقد الوعى .. وفُزعت أمه لحالته وهو يدخل عليها .. دخل عليها أصفر الوجه ، مُطفأ العينين ، متهالكًا وكأنه على وشك الموت .. أسرعت به إلى الفراش .. وأسرع إخوته يلتفون حوله محاولين معرفة ما به ، وهمت أخته بأن تطلب الطبيب بالتليفون ، ولكنه أشار لها بعدم فعل ذلك ، وطلب منهم أن يتركوه بمفرده لينام ، ولم يملكوا إلا الاستجابة له أمام إلحاحه .. سحبوا عليه غطاءه ، وغادروا الحجرة فى هدوء ، بينما أغلق هو عينيه متمنيًا ألا يستيقظ أبدًا من نومه ، ولكن ما هى إلا ساعات قليلة ، حتى كان مستيقظًا رغمًا عنه ، استيقظ على صوت حنون مغرد ، فتح عينيه ليُفاجأ بـ (زوزة) تجلس بجواره على الفراش ، بينما أمه واقفة بجوارها قلقة عليه ، وتسمرت عينا الفتى على فتاته فى مرارة وألم ، ونظرت الفتاة فى حياء إلى والدته ، فانسحبت الأم فى هدوء ، وإذا بالفتاة تقول للدكتور الشاب :

ـ هيا انهض ، وخذنى إلى أى مكان نختفى فيه حتى نحلها مع (حسام) .

ضرب الذهول الفتى ، غمغم غير مصدق :

ـ ماذا تقولين ؟!

ـ ما سمعته .. هيا انهض .

وفى لحظات كان الاثنـان يمضيان فى الشـارع ، وفى يد كـل منهما حقيبة ملابسـه .. ومـا إن ابتعدا بالقـدر الكـافى عن البيت ، حتى توقفا فى شارع جانبى لتسأله الفتاة :

ـ أتستطيع تدبير مكان لنا ؟

نظر إليها فى حيرة للحظة ، ثم أجابها :

ـ تعالى .

واتجه بها إلى تليفون قريب ، ولجـرى عـدة اتصالات ، التفت بعدها إلى فتاته خائب الرجاء ، فإذا بالفتاة تقول له باسمة :

ـ لا عليك ، أريد أن أشرب كوب شاى .

انطلق بها الفتـى إلـى كوفـى شوب (الأمـير) ، وجلسـا فـى نفس الركن الذى شهد أول لقـاء بينهمـا ، وراحـا يسـتعيدان فى سعادة كل مـا دار بينهمـا فـى هذا اللقـاء ، وإذا بالفتـاة تهتف فجأة :

ـ وجدتها !

ـ ما هى ؟!

ـ أتذهب معى إلى الشرقية ؟

بدا عليه عدم الارتياح :

ـ عند (أنوار) ؟

هتف به مندهشة :

ـ أين ذكاءك يا دكتور ؟ أول مكان سيبحث فيه (حسـام) عنا هو بيت (أنوار) .

ـ إذن أين ؟

ـ عند صديقة لى .

تطلَّع إليها الفتى مترددًا ، ولكنها هبت واقفة :

ـ هيا بنا .

ومـن الكوفى شـوب إلى (بيجـو) انطلق ينهـب بهمـا الأرض نهبًا على طـريق (القـاهرة ـــ الشـرقيـة) .. وفـى خلال سـاعـات قليلة كانـت (زوزَة) و فتـاها يجلسـان فـى شقة صـديقتها (سـميرة خيشـة) ، التى استقبلتهما بحفـاوة بالغـة ..

وكانت (سميرة خيشة) تعمل بائعة للمثلجات فى الأفراح مع شقيقها الأكبر (أبو خيشة) .. وكانت تربط الشقيقين علاقة صداقة بـ (زوزة) و (أنوار) ، وبالطبع كانا يعرفان (حسام) ، وكانا يتبادلان معه الزيارات .. ولكن (حسام) ما كان يخطر بباله أبدًا أن تقصدهما (زوزة) فى مثل هذا الموقف ، لذلك اختارتهما (زوزة) لتنزل بحبيبها عليهما كضيفين حتى يتدبرا أمرهما .. وإذا بالحبيبين ينعمان بالأمان فى بيت الصديقة النبيلة ، وإذا بسعادتهما تطغى وتطغى حتى نسيا تمامًا أن وراءهما مجنونًا يركض خلفهما بلا توقف : (حسام) !

لقد حولته الصدمة إلى وحش مسعور يملأ الأرض ركضًا وعواءً .. وأول ما بدأ ركضه بدأه بمنزل الدكتور الشاب ، وعلم أنه اختفى ، ولا أحد يعلم مكانه ، وانطلق يفتش عنه فى كافة الأماكن التى يتردد عليها دون أن يعثر له على أثر .. وأسرع إلى (أنوار) فى الشرقية ليجد نفس النتيجة فى انتظاره ، ولم يعد أمامه سوى الشوارع ، انطلق يركض فيها وهو يزداد جنونًا فوق جنونه .. راح يبحث فى المنازل ، فى المحلات ، فى الحدائق ، فى وسائل المواصلات ، وفى كل مكان يطؤه بشر .. كل ذلك بلا جدوى .. وعاد يقبع أمام منزل الدكتور الشاب لعله يظهر ، ولكن مضت عشرة أيام دون أن يظهر له أثر ، فعاد إلى

ركضه فى الشوارع وقد بلغ به جنونه أن أقسم لنفسه بأن يمزق أحشاء هذا الـ (فوزى) ويخرجها فى يده بمطواته .. ولكن أين هو ؟ بل أين هما ؟ لن يغمض له جفن حتى يطبق عليهما بيديه ، ولكى يستطيع مقاومة نار جهنم التى تشويه انقض على الأقراص المخدرة يلتهمها التهامًا .. إنه يملأ كفيه معًا بـ (الأباتريل) ويقذف به داخل حلقه .. وبلغ به الجنون أن راح يبتلع أكثر من سبعين قرصًا فى اليوم الواحد .. وطفح مفعول هذا الجنون على وجهه وجسده .. تخشب وجهه وصبغه السواد ، وغارت عيناه تحت حاجبيه الكثيفين وقد اصطبغتا بحمرة الدم ، وصار شعره كتلة هائشة غبراء ، وصارت ثيابه كثياب المتشردين ، وبدا فى جملته كوحش بشع فر من قفصه ، ولا يكف عن الركض ، حتى توقف ذات يوم على رنين تليفونه المحمول لتأتيه بضع كلمات :

- (حسام) ، احضر فورًا لتأخذ زوجتك ، أنا (أبو خيشة) !

* * *

عاد (أبو خيشة) بعد غياب بضعة أيام عن منزله ليُفاجأ بـ (زوزة) فى منزله برفقة شاب غريب .. وحينما علم بالقصة من شقيقته اعترته الدهشة والامتعاض .. فهو مثل أى رجل عجوز ريفى كان من المستحيل أن يؤيد وضعًا كهذا مهما كانت المبررات الداعية إليه .. وجاء رد فعله سريعًا حاسمًا .. أسرع بالاتصال بـ (حسام) ليخبره بمكان زوجته .. ثم عاد إلى أخته ينهال عليها توبيخًا وعتابًا ، ويخبرها بأن (حسام) قادم فى الطريق .. ووقع قلب (سميرة) فى قدميها خوفًا على الحبيبين ، وأسرعت تحذرهما ، فما كان منهما إلا أنهما سارعا بالتقاط حقيبتيهما ، والقفز خارج الشقة ، بينما تولت (سميرة) مهمة عرقلة أخيها عن التعرض لهما .. وفى لمح البصر كان الحبيبان يهرولان بحقائبهما فى الظلام ..

كانت الساعة قد جاوزت الثانية صباحًا .. وكان الصقيع يكاد يجمد كل شىء ، بينما جعلت العتمة من أزقة القرية سراديب سوداء مهجورة ، انطلق الحبيبان يركضان فيها كشبحين مذعورين .. إن كل همهما هو أن يبتعدا عن الخطر الهائج خلفهما .. فمن المؤكد أن (أبو خيشة) عاود الاتصال بـ (حسام) وأبلغه بمكانهما ، وأنه أفلت من أخته ، ويحاول اللحاق بهما لعرقلتهما حتى يصل (حسام) .. ومن المؤكد أيضًا أنه سيفتعل جلبة حتى تستيقظ القرية وتهيج عليهما .. يا له من خطر مروع جعل الحبيبين لا يتوقفان عن الركض حتى خرجا إلى الخلاء ..

لم يكن هناك شىء سوى صمت القبور ، والحقول التى اختفت خضرتها وبدت سوداء من شدة العتمة ، ومع ذلك لم يتوقف الحبيبان عن الركض وهما لا يعرفان لهما وجهة ، وظهرت سيارة نقل على الطريق ، وفوجئ قائدها بالشبحين المنطلقين فى هذا الخلاء المميت .. وحينما اقترب منهما ، وتأكد له أنهما من الإنس وليسا عفريتين ، سارع بالتوقف لهما ، وأدخلهما معه فى السيارة ، وهو يتطلع إليهما فى دهشة طاغية ، ويسألهما عن وجهتهما .. وإذا بالحبيبين ينظران إلى بعضهما فى حيرة ، ولكن حيرة الفتاة لم تطل ، فوجئ بها الدكتور الشاب تجيب السائق .

ـ قرية (شيت) ..

ونظر الدكتور إلى الفتاة متسائلاً ، فإذا بها تجيبه بابتسامة حانية مطمئنة ، بينما عاود قائد السيارة الانطلاق بسيارته ..

ها هى (زوزة) تنطلق بحبيبها قاصدة صديقتها (منى) .. أرملة شابة فقيرة تعيش بمفردها .. واستقبلتهما (منى) بترحاب وحفاوة .. وصارحت (زوزة) (منى) بالأمر ، فزاد ترحاب الصديقة بهما .

كان منزل (منى) عبارة عن حجرة واحدة ريفية شديدة الفقر .. كانت أشبه بقبو مظلم عطن .. فالحجرة ضيقة جدًا تتسع بالكاد لسرير قديم متهالك ، وحصيرة بالية من القش .. والجدران طينية رطبة ممتلئة بالشقوق ، والسقف عبارة عن كتلة من الخشب والقش ، والحشرات الزاحفة والطائرة ترتع فوق الجدران والأرض والفراش ..

باختصار لم تكن حجرة بقدر ما كانت قبوًا عطنًا كريهًا ، أثار ذهول الحبيبين وهما يجلسان فوق الحصيرة البالية .. وهنا بدأ يداهم الحبيبين إحساس مرير مؤلم .. إحساس بالتشرد .. وفى لحظة واحدة وجد كل منهما نفسه ينظر فى عينى الآخر ، ليكتشفا أن هذا الإحساس البغيض داهمهما معًا فى نفس اللحظة .. ولكن إحساس الفتاة لم يتوقف عند هذا الحد .. لقد راح عقلها يدور فى أمر آخر وهى تنظر فى وجه حبيبها .. هذه البهدلة كثيرة جدًا عليه .. هى من ناحيتها تستطيع احتمال هذا وأكثر ، فقد مرت فى السجن بظروف أقسى كثيرًا من هذه ، أما هو فلا تكوينه ولا طبيعته يؤهلانه لاحتمال ذلك .. وتحرك بداخلها إحساس بالذنب نحوه ، وإحساس أكبر بالامتنان له .. إنه يحتمل كل هذا لأجلها .. لأنه يحبها ، ولكنها عاجزة عن إسعاده بهذا الحب .. ما ذنبه ؟ ما ذنبه ؟ وما إن بلغت هذه النتيجة حتى راحت دموعها تنساب فوق خديها فى حزن مؤلم ..

فى الصباح كان الحبيبان يغادران منزل (منى) وهما يشكرانها على حُسن ضيافتها لهما .. ولم تشأ (منى) أن تُلح عليهما بالبقاء ، فقد كانت تدرك من البداية أنهما لن يستريحا لديها ؛ لتواضع المنزل والمعيشة ..

انصرف الحبيبان وهما لا يعلمان لهما وجهة .. ولكن ما إن بلغا الطريق الأسفلتى حتى رن تليفون (ظاظا) المحمول .. كان المتحدث هو شقيقه ، وسرعان ما بدا على الدكتور الشاب الغضب الشديد وهو يقول لمحدثه :

- أنا قادم فورًا .

وأغلق التليفون ، والتفت إلى (زوزة) وقد طفح الغضب على وجهه ، فهتفت به الفتاة منزعجة :

- حبيبى ، ماذا حدث ؟

- (حسام) ضايق أمى وإخوتى .

صُدمت الفتاة ، وغمغمت ساخطة :

- الملعون !

- هيا بنا .

وفى أقل من ثلاث ساعات كان الدكتور الشاب فى شقته

ليُفاجأ بالعائلة كاملة العدد مجتمعة فى انتظاره .. أمه وإخوته وأخواله ، وزوج أخته ضابط البوليس المعروف بعنجهيته وسماجته .. استقبلوه جميعًا بوجوه متجهمة تطفح بالغضب والاستنكار .. وعلم منهم أن (حسام) لا يتوقف عن الاتصال بهم تليفونيًا ليل نهار .. وأنه تارة يتوسل ، وتارة يهدد ويتوعد .. بل بلغ به الأمر أن استوقف أمه وأخته فى الشارع ، وقال لهما كلامًا كثيرًا مؤلمًا مؤدّاه كله أن الدكتور خان صداقته ، وغرر بزوجته ، وهرب بها فى نذالة !

وأصغى إليهم الدكتور الشاب وهو يتطلع إليهم فى مرارة وعتاب ، حتى فرغوا من وصلتهم ، ثم سألهم بكل مرارته :

ـ وهل صدقتموه ؟

فأجابه خاله ، وكان رجلاً جليلاً ذا منصب رفيع :

ـ إذا كان هو كاذبًا ، فأخبرنا أنت بالحقيقة يا دكتور .

ولكن المقدم (محمد) زوج أخته لم يعطه الفرصة ليخبرهم ، بل تدخَل مخاطبًا الدكتور بعنجهيته الاستفزازية :

ـ اسمع يا دكتور .. نحن لسنا هنا لنناقش من الصادق ومن الكاذب .. نحن هنا لنطلب منك مطلبًا محددًا ، وهو أن تخرج نفسك من هذا الموضوع .. إنه موضوع مشين لك ولنا

جميعًا ، وأنت نفسك تعلم جيدًا بأنه لا مركزك ولا مراكزنا تسمح لك بالتورط فى موضوع مشين كهذا .

كظم الدكتور غيظه ، وسأله فى هدوء :

ـ وما هو المشين فى الموضوع يا (محمد) باشا ؟

ـ المشين فيه هو أن هذه التى تريد تطليقها والارتباط بها زوجة لمشبوه رد سجون .. ومعنى أنها ارتبطت به ، ورضيت بالعيش معه لأكثر من سبع سنوات أنها من نفس فصيلته .

قالها ، وما كاد يتمها حتى دوّت صرخة الدكتور الشاب وهو ينتفض واقفًا كالإعصار :

ـ (محمد) باشا !!

وتجمد الجميع من هول الصرخة .. وتكهرب الجو .. وهبت الأم واقفة مسرعة بضم ابنها فى حضنها فى فزع :

ـ (ظاظا) حبيبى .. اهدأ .. (محمد) لا يقصد .. إنه فقط مستاء من الكلام الحقير الذى يقوله عنك هذا السافل المدعو (حسام) .. إنه يحبك ويحترمك ، وأنت تعلم ذلك جيدًا .

ورغم صدق كلمات الأم وحنوها ، إلا أن الدكتور الشاب ظل يحدق فى صهره بنظرات نارية تغلى بالغضب .. ووقف الخال الجليل يربت على الدكتور فى حنان قائلاً :

ـ أنا أعتذر لك بالنيابة عن (محمد) باشا يا دكتور .

وفى هذه الأثناء كان (محمد) باشا يخرج من جيبه دفتر شيكاته ، ويوقع شيكًا منه وينزعه ، ثم إذا به ينهض مقتربًا من الدكتور حتى وقف أمامه يتطلع إليه بنظرة حانية تفيض اعتذارًا ، ثم يقول له فى ود واحترام :

ـ دكتور (فوزى) .. أنا لم أقصد أبدًا أن أجرحك ، فأنت تعلم جيدًا قدرك عندى وعندنا جميعًا .. وتعلم كم نحن جميعًا فخورين بك .. وشاب فى أدبك وعلمك ورُقيك حين يفكر فى الزواج فإنه من حقه أن يختار أرقى فتاة فى هذا العالم .. فتاةً تليق به حسبًا ونسبًا ورُقيًا .. هذا هو حقك فعلاً .. ومن واجبنا نحوك كعائلتك التى تحبك وتفخر بك ، أن نساندك فى هذا الحق .. وهذه ليست مجرد كلمات أجاملك بها ، بل إنها الحقيقة ، وها هو دليلى عليها .. شيك بخمسين ألف جنيه كبداية لوقوفنا جميعًا معك فى الارتباط بمن تليق بك .

ومد الضابط يده بالشيك للدكتور الشاب ، وهو يتطلع إليه بأخوة وحب .. فى حين ران الصمت على الجميع فى ترقب لرد فعل الدكتور .. وإذا بالدكتور يهدأ وتلوح على وجهه ابتسامة امتنان لصهره ، وإذا به يتناول منه الشيك برفق ، ثم يقول له بودٍ :

ـ اجلس من فضلك يا (محمد) باشا ..

وجلس الجميع .. وراح الدكتور يدور عليهم جميعًا بنظرة مخنوقة تفيض مرارة ، ثم عاد يتطلع إلى الشيك فى يده لبرهة ، رفع بعدها عينيه نحوهم مرة أخرى قائلاً بهدوء :

ـ اسمحوا لى جميعًا أن أطرح عليكم سؤالاً .. لو حدث وكان أحدكم يسير فى أحد الشوارع ، وإذا به يُفاجأ بحوذى ينهال على حصانه ضربًا بوحشية وبدون رحمة ، كيف سيتصرف فى هذا الموقف ؟

ودار بعينيه عليهم جميعًا فى انتظار جواب ، حتى أجابته أمه :

ـ سيمنعه من ذلك ولو اُضطر إلى انتزاع الحصان منه .

عاد الدكتور يسألها مستوثقًا :

ـ رغم أن الحصان ملكه ؟

وأجابه الخال الجليل :

ـ ملكيته له لا تعطيه الحق فى إساءة معاملته .

هتف الدكتور الشاب :

ـ هو ذا لب الموضوع يا خالى .

وأطرق الدكتور مهمومًا لبرهة ، ثم راح يوضح لهم حقيقة الأمر :

ـ لقد ألقى القدر فى طريقى بفتاة مسكينة يتيمة الأبوين ، ولا سند لها ، وواقعة فى قبضة زوج مجرم يحيا على البطش بها ، وما إن وجدتنى فى طريقها حتى تعلّقت بى كطوق نجاة أرسله إليها ربها ، فهل كان لى أن أتخلّى عنها ؟

بدا التأثر على الجميع ، وران عليهم الصمت والحيرة للحظة ، حتى تدخلت شقيقته المحامية قائلة فى تأثر :

ـ يا دكتور ، نحن لا ندينك فى موقفك هذا ، ولكننا نخاف عليك ، هذا الزوج الذى تتحدث عنه مجرم وبلطجى كما تقول أنت نفسك ، ولكنه فى النهاية زوجها شرعًا وقانونًا ، وهروب زوجته معك بهذه الطريقة يعطيه هو الحق ، ويدينك أنت ، وأنت خير من يعلم ذلك .

ـ وهل الشرع والقانون يا أستاذة يعطيانه حق العيش معها بالإكراه ؟

ـ لاطبعًا .. إذا كانت لاتريده فالخلاص منه سهل .. هناك الطلاق ، وهناك الخُلع .. وأنا نفسى مستعدة لتخليصها منه بالقانون .

وأُسقط فى يد الدكتور الشاب .. وفوجئ به الجميع

صامتًا لا يرد ، مما أثار دهشتهم .. فهذا الطريق المتاح لأية امرأة فى العالم لاتستطيع حبيبته الاقتراب منه ؛ لأن (حسام) سيكون فى انتظارها على قارعته بفضيحة الماضى التى ستقضى عليها .. وطال صمت الدكتور وبدا عليه الاختناق الشديد حتى امتقع وجهه ، وجزعت أمه لحالته ، فأسرعت تأخذه بين يديها وهى تقول له بكل حنانها :

ـ حبيبى .. لقد أحسنت تربيتك ، وبلغت بك الدرجة التى تُعلّم فيها الناس الفرق بين الخطأ والصواب ، وأنا فخورة بهذا .. افعل مايمليه عليك ضميرك ، ومايليق بك .. وتأكد أننا جميعًا نحبك ونحترمك ، ونتمنى لك كل السعادة والخير ..

كلمات أشبه بقطرات الندى نزلت على قلب الابن المعذب لتطفئ عذابه ، وتذهب بغمه ، وجعلته ينحنى على يد أمه الجليلة يقبلها فى بر وامتنان .. ثم إذا به يلتفت إلى المقدم (محمد) ويعيد إليه شيكه قائلاً فى أدب وامتنان :

ـ شكرًا لك يا (محمد) باشا .. إننى الآن متفهم لموقفك ، وأقدّر نبلك ، وسأظل أعتبرك أخًا لى ما دمت حيًا .

ولم يملك الضابط الشاب إلا أن ينهض ويضم الدكتور فى حضنه بحب وحنان ، ثم التفت الدكتور إلى باقى الجالسين مخاطبهم جميعًا فى امتنان :

ـ شكرًا لكم جميعًا .. لقد أثبتم أن الدماء لايمكن أن تكون ماءً فى يوم من الأيام ..

واستدار لينصرف ، فإذا به يسمع المقدم (محمد) يناديه فى وُدٍّ :

ـ دكتور (فوزى) !

والتفت إليه الدكتور متسائلاً ، فإذا بالضابط يقول له فى جدية :

ـ لو شئت إجبار هذا الولد على طلاقها أخبرنى ، وأنا أفعلها فورًا .

وكان رد الدكتور عليه فى امتنان :

ـ شكرًا لك يا (محمد) باشا .. هذا ليس من أخلاقى ، ولن يكون .

واستدار منصرفًا فى شموخ .

★ ★ ★

الفصل الخامس

خرج الدكتور (فوزى) إلى الشارع مختنقًا ، تتقاذفه أمواج عاتيةً من مشاعر مريرة ، أكثرها مرارة شعوره بالعجز والحيرة .. لم يكن يعلم بأنه لدى الزمان عُقد كفيلة بأن تهد الإنسان وتضربه بالعجز .. وها هو أمام عقدة منها تكاد تفتك بعقله ..

فـ (حسام) لن يطلّق (زوزة) ولو وضعت فوق رقبته السكين .. والمسكينة لا تستطيع اللجوء إلى الحل القانونى ؛ لأنه لن يتردد فى تدميرهما معًا بفضح ماضيها أمام عائلته .. يا لها من عقدة ! ويا له من قدر !

ومضى الفتى بحيرته ومرارته وآلامه التى لا تُحتمل حتى وصل إلى حبيبته التى كانت تنتظره لدى صديقة لها ..

وصُدمت (زوزة) بهول الغم الطافح على وجه حبيبها ، وسارعت بضم رأسه فى صدرها ، وهى تسأله بانزعاج :

ـ حبيبى ، ماذا بك ؟

ـ مخنوق يا (زوزة) .

ـ مخنوق وأنت مع (زوزة) ؟

ـ لماذا كل الأبواب مسدودة هكذا ؟

هتفت مستنكرة :

ـ (ظاظا) يقول هذا ؟! أين إيمانك بالحب ؟!

ـ الحب نفسه يختنق .

ـ لا .. لا يا حبيبى .. الحب لا يمكن أن يختنق أو ينهزم أبدًا .. إنه أقوى ما فى الوجود .. أقوى من الحياة ذاتها ، وأكبر دليل على ذلك أن جميع المخلوقات تموت وتفنى ، بينما هو باق منذ أن بذره الله فى قلب الإنسان .

ـ إذن بماذا تصفين ما نحن فيه ؟

ـ اختبار .

ـ اختبار ؟!

ـ نعم ، اختبار من الحب ذاته ، كى يعلم إن كنا جديرين به أم لا ، وليس أمامنا سوى طريقة واحدة للنجاح فى هذا الاختبار .

ـ ما هى ؟

ـ أن نحب بعضنا أكثر وأكثر .

وإذا بقلب (ظاظا) ينتفض متخلصًا من قبضة الغم بفضل روعة حبيبته ، وإذا به يستعيد نشوة الحب ، وإذا به يهتف فى الفتاة الرائعة :

ـ ما رأيك فى فطيرتى بيتزا ؟

وإذا بالفتاة تطلق صيحة فرحة ، وتنطلق به مغادرة منزل الصديقة .. خرجا إلى الشارع متشابكى الأيدى تسبقهما ضحكاتهما ، ودقات قلبيهما الهائجة بالفرحة والحب .. كانا على بعد أمتار قليلة من محطة (عزبة النخل) .. وكان الطريق الذى يهرولان فيه بمحاذاة (مترو الأنفاق) مظلمًا وخاليًا تمامًا من المارة ، فالساعة قد جاوزت الحادية عشرة ليلاً ، والجو الشتوى البارد أخلى الطرقات من الناس ، وانتبه الحبيبان إلى ذلك .. وانطلقا يجريان خلف بعضهما كطفلين مشحونين بالفرحة والبراءة ، وراحت الفتاة تصيح من فرط فرحتها :

ـ (ظاااااظا) ..

وراح الفتى يجيبها بفرحة أكبر :

ـ حبيبة ظاااا ...

ولم تكتمل صيحة الفتى .. حُبست فى حلق العاشق الشاب ، وهو يسد الدماء المنبثقة من بطنه بيده ، ويطلق آهة مكتومة ، بينما راح (حسام) يسحب مطواته من بطنه وهو يحدق فى عينى (زوزة) بنظرة جهنمية مرعبة تتفجر غِلاً وشماتة ، انتهت بأن سقطت المسكينة على الأرض فاقدة الوعى ..

★ ★ ★

لحظات وكان (ظاظا) فى حجرة العمليات بمستشفى (وادى النيل) .. وسرعان ما اطمأن الأطباء إلى عدم خطورة إصابته ، فقد مر نصل المطواة بجوار الكبد دون أن يمسه ..

وتنفس الجميع الصعداء .. وخرت (زوزة) ساجدة على الأرض أمام حجرة العمليات حمدًا لله .. وما لبث (ظاظا) أن تم نقله إلى حجرته بالمستشفى محاطًا بحبيبته وعائلته .. وما هى إلا لحظات حتى جاء البوليس لأخذ أقواله بعد أن قبض على (حسام) .. وما إن بدأ المحقق فى سؤال الدكتور المصاب ، وذكر اسم (حسام) حتى أسرع الدكتور المصاب متسائلاً :

ـ وما دخل (حسام) ؟

وبُهت الجميع .. وضرب الذهول (زوزة) وهى تهتف فى حبيبها الممدد فى فراشه غير مصدقة :

ـ دكتور (فوزى) ؟!

وإذا بالدكتور الشاب يجيبها بلهجة حاسمة :

ـ من فضلك يا (زوزة) ، لا تتدخلى فى الأمر .

وصُدمت الفتاة ، وكادت تُجن .. ولم تكن صدمتها وذهولها بأقل من صدمة وذهول عائلته نفسها .. وعاود المحقق سؤاله عن (حسام) ، فإذا بالدكتور الشاب يجيبه فى إصرار :

ـ يا باشا ، الذى طعننى ليس (حسام) .. أنا رأيت الذى طعننى جيدًا ، إنه ليس (حسام) .

تفرسه المحقق بنظرة حيرة ، ثم عاد يسأله :

ـ هل هناك عداوة بينك وبين أحد غيره ؟

ـ أنا ليس لى أعداء ، لا (حسام) ولا غيره .

هتف المحقق مندهشًا :

ـ من فعلها إذن ؟!

ـ لا أدرى ، ولكنه ليس (حسام) .. ليس (حسام) .

ولم يجد المحقق مفـرًا مـن إقفـال محضـره على هذا النفى القاطع .

* * *

لم يصدق (حسام) نفسه وهو يسمع قرار وكيل النيابة بالإفراج عنه .. وقف على سلم سراى النيابة يحدق أمامه فى لا شىء ببلاهة ، ولا شىء بداخله سوى كلمة واحدة تتردد بلا توقف :

ـ كيف ؟ كيف ؟

وتحركت به قدماه دون وعى منه ، وراحت تضرب به فى الشوارع على غير هدى ، بينما راحت تساؤلاته تتلاطم بداخله كأمواج هائجة تطارد بعضها بعضًا :

ـ لماذا برّأه (فوزى) من محاولة قتله ، ألم تكن هذه هى فرصته للتخلص منه بالسجن ؟ أم أن كرامته أبت عليه أن تثأر له الحكومة فقرر أن يثأر هو لنفسه ؟ ولكن كيف ؟ هل سيمسك بمطواة ويحاول قتله بها كما فعل هو به ؟ إن هذا مستحيل على إنسان مثله .. مستحيل أن يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب ، ولكن كان بإمكانه أن يلجأ إلى أسلوب آخر .. كان بمقدوره أن يرسل له فى محبسه من يساومه على طلاق

(زوزة) مقابل براءته .. وبالقطع كان سيفوز فى هذه المساومة ، فالتهمة شروع فى قتل ، وعقوبتها لا تقل عن عشر سنوات سجنًا .. ومن المؤكد أنه يعلم ذلك كرجل مثقف ، فلماذا لم يفعلها ؟! ما الذى منعه ؟ هل خاف من انتقامه منه بعد خروجه من السجن ؟ إنه ليس من صنف الرجال الذى يخاف ، ولو كان منهم ما دخل معه فى هذه الحرب الضارية من بدايتها .. إذن ما الذى دفعه إلى التصرف بهذه الطريقة العجيبة ؟! ماذا ؟! ماذا ؟!

ومضى الفتى الأغبر والحيرة تكاد تعصف بعقله .. وشعر برأسه وكأنها صارت صندوقًا مظلمًا ممتلئًا بصراصير وفئران تعضعض فيه بشراهة .. أكثر من ثلاث ساعات قضاها هائمًا على وجهه فى الشوارع وهو يستميت فى الإمساك بأية إجابة عن أسئلته الهائجة داخل رأسه ، ووجد نفسه يردد بداخله :

ـ السر عندك أنت يا (فوزى) .. السر عندك أنت وحدك .

وفوجئت به (زوزة) يدخل عليها حجرة (ظاظا) فى المستشفى ، وهمت بأن تنقض عليه بكل غِلها وسخطها ، لولا صوت (ظاظا) الواهن من فراشه :

ـ (زوزة) !

وأسرع يمسك بيدها ويقبلها كى تهدأ ، ثم التفت إلى (حسام) متطلعًا إليه فى هدوء وطمأنينة ، بينما وقف (حسام) أمامه يحدق فيه بحيرته التى تفترسه دون أن يتفوه بحرف ، وكأنه فقد النطق .. وطالت وقفته الصامتة أمام الدكتور الممدد فى فراشه .. وطال تحديقه فيه الصارخ بالحيرة .. وقرأ الدكتور الشاب كل ما يدور فى عقل الفتى البائس ، وراح يتأمله مليًا .. كان وجهه الأبيض الممتلئ قد انطفأ وامتقع ، وصار عظميًا مظلمًا ، بينما غارت عيناه المطفأتين تحت حاجبيه الكثيفين فبدتا كثقبين معتمين لا حياة فيهما ، فى حين زاده شعره الطويل الأغبر ، ولحيته الضخمة المدببة المحيطة بوجهه بشاعة فوق بشاعته .. وكان واضحًا أنه عاجز عن النطق وهو مازال يحدق بحيرته فى وجه الدكتور ، ولكنه فى النهاية نطق .. نطق بسؤال واحد لخص كل تساؤلاته الهائجة فى رأسه :

ـ لماذا ؟!

وأجابه الدكتور الشاب فى مرارة وهو يكابد آلام الجرح :

ـ من أجل (زوزة) .

ـ كيف ؟! لقد كانت فرصتكما للتخلص منى .

ـ بل كان هذا مستحيلاً .

ـ لماذا ؟!

ـ قلت لك من أجل (زوزة) .. حتى لا يُقال إنها تسببت مع حبيبها فى إدخال زوجها السجن .. كان من المستحيل أن أصمها بهذا العار وهى التى تستحق منى كل تكريم ..

وارتج الشيطان .. ارتج أمام هذا النبل المُصفى ، وأمام جلال الحب ..

ارتج وكأنما داهمته حمى ملتهبة ، وشعر وكأن الأرض تميد به ، وكأن ساقيه تنثنيان رغمًا عنه ، ولم يستطع منع نفسه من النزول على ركبتيه وهو يتشبث بالفراش .. وإذا به يشعر وكأنما طوفان هادر ساخن يجتاحه من الداخل باحثًا له عن مخرج ..

وخرج ..

خرج من عينيه دموعًا ساخنة راحت تزحف فوق خديه ببطء ، وكأنها شُلت من طيلة حبستها.. وبكل ذهوله وعذابه راح يحدّق فى الدكتور الشاب من خلف دموعه متسائلاً :

ـ من أنت ؟!

ـ إنسان يحب .

ـ وهل الحب يفعل هذا بالإنسان ؟

ـ جرِّب .. جرِّب بنفسك ، وستجده يفعل بك أكثر من هذا .. ستجد نفسك ملاكًا عندما تحب .

ـ أنا ! أنا (حسام زنجر) بكل شروره وآثامه يمكنني أن أتحول إلى ملاك ؟!

ـ نعم يا (حسام) يمكنك .. بالحب .

ـ أليس هذا مجرد كلام مما تقرءونه فى الكتب .

ـ لا ، ليس مجرد كلام .. ها أنا أمامك .. انظر كيف جعلنى الحب أرد على ما فعلته أنت بى .

ـ أنت واحد من الناس هل يمكنك أن تحبنى بعد ما فعلته بك ؟

ـ دموعك هذه تؤكد لى أننى بمقدورى أن أحبك ، لأنها دموع ندم وتطهر ..

ـ كيف أكفر عن ذنبى تجاهكما ؟

وهنا لم يملك الدكتور الشاب إلا أن يرفع عينيه نحو (زوزة) بنظرة حزينة مشفقة ، ثم عاد يتطلع إلى (حسام) فى مرارة ورجاء .. وإذا بـ (حسام) ينهض وهو متهالك مهدود ، ويقف أمام الفتاة الباكية يتطلع إليها بنظرة جديدة تمامًا .. نظرة خلت من الشر والجبروت والقسوة ..

نظرة تهدر ندمًا واعتذارًا ، وتفيض دفئًا وحنانًا ، واجتاحته رغبة عاتية فى أن يضمها فى صدره ، ولكنه لم يفعل .. بل أمسك بيدها الرقيقة ووضعها فى يد (ظاظا) ليطبع على اليدين قبلة مغمورة بالحب والتسامح ، وإذا به يرفع وجهه الغارق فى الدموع نحوهما قائلاً :

ـ لا تنسيا أخًا لكما اسمه (حسام) .

واستدار منسحبًا من الحجرة بخطوات ملائكية ، بينما (ظاظا) و (زوزة) يشيعانه بنظرة حب وهما متشابكى الأيدى ..

ولم تمض سوى شهور قليلة حتى كان (حسام) يوقع شاهدًا على وثيقة زواج الحبيبين .

■ النهاية ■



سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



فوزى عوض سعداوى

ورود وأحجار

كان لا بدَّ أن أنتظر حتى تنتصر
على أعداء الحياة والحب .. على
عبيد التعاسة والشقاء .. على
الأحجار التى تتحرَّك بيننا فى
هيئة بشرٍ لتدهسَ الورد
بلا ذَنبٍ جنَاه

101

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٩٧
فاكس ٦٨٢٧٠٠٢

الثمن فى مصر ٣٠٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

